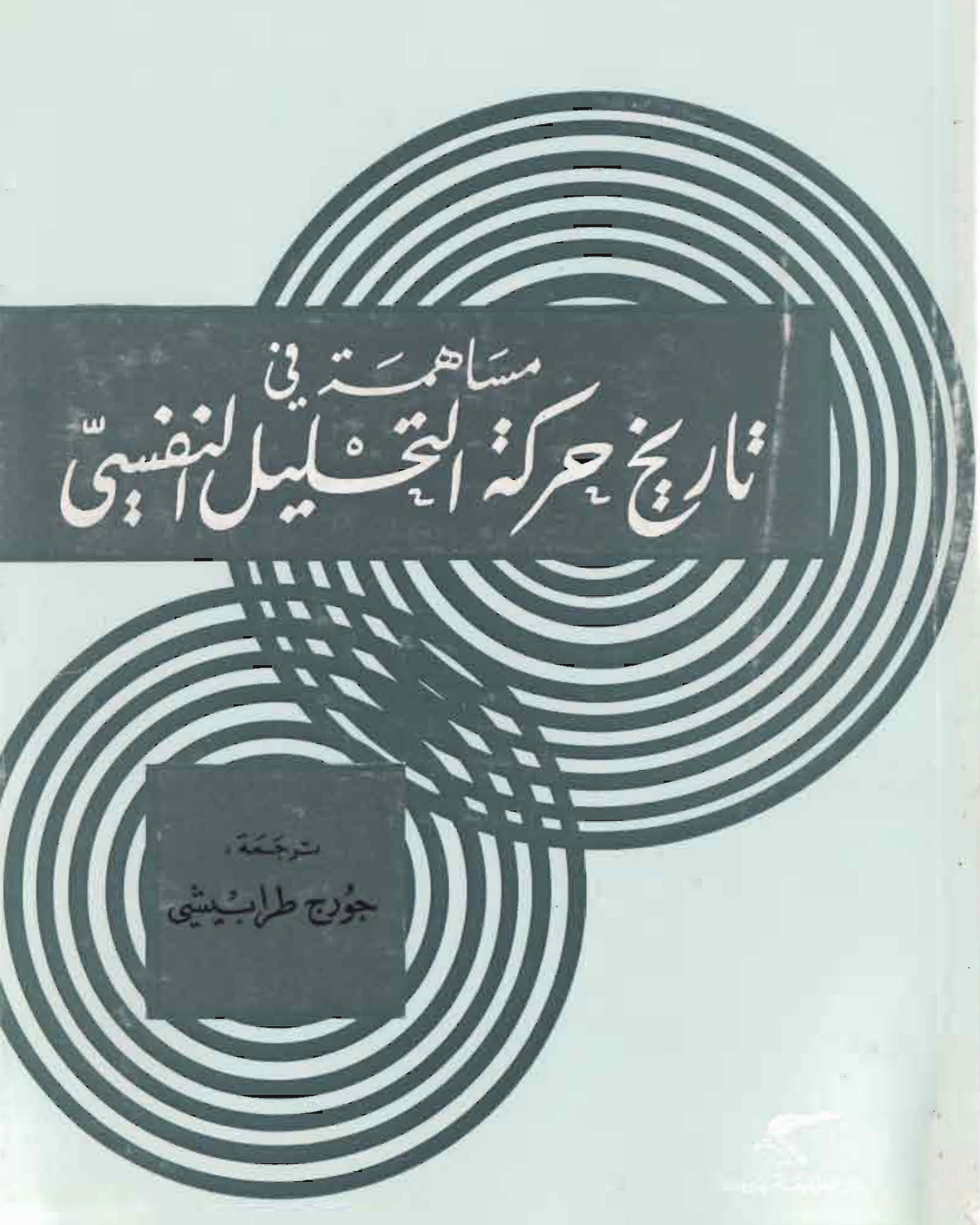
سيغموند فرويد



مساهمة في تاريخ حركة التحليل النفسي

ترجمة :

جورج طرابيشي



هـذا الكتاب

ما الشروط التاريخية والعلمية التي تحكمت بولادة التحليل النفسي؟ ما المقاومات التي واجهته؟ ما الصراعات والنضالات التي خاضها؟ وما الانتصارات والهزائم التي أحرزها أو مُني بها؟ وقبل كل شيء، ما الانشقاقات التي حدثت في صفوفه؟

إن هذا النص، الذي كتبه فرويد سنة ١٩١٤، لا يؤرّخ للتحليل النفسي فحسب، بل يحدّد ما يُميزه عن أخطر انشقاقين تفرعا من صلبه: انشقاق آدلر بنظريته عن علم النفس الفردي، وانشقاق يونغ بنظريته عن اللاشعور الجمعي.

ومن خلال ردود فرويد النقدية على اطروحات ورثتـه المنشقين تتحدد معالم مناظرة كبرى: هل التحليل النفسي منهج أم مـذهب؟

كتاب ــ مرجع لطالب الاختصاص، كما للقارىء العام.

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

الثمن : [redacted] ل.
او ما يعادلها

سيغموند فرويد

مساهمة في
تاريخ حركة التحليل النفسي

ترجمة :

جورج طرابيشي

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

ص.ب ١١١٨١٣
تلفون ٣٠٩٤٧٠
٣١٤٦٥٩

الطبعة الاولى
آب (اغسطس) ١٩٧٩

الطبعة الثانية
ايار (مايو) ١٩٨٢

هذه ترجمة كتاب

Contribution A L'Histoire
Du Mouvement Psychanalytique
Par
Sigmund Freud
1914

- ١ -

«الامواج تضربه ، لكنه لا يغرق» (١)

بودي ، في الصفحات التي تلي ، ان اقدم مساهمة في تاريخ الحركة التحليلية النفسية . وتتسم هذه المساهمة بطابع ذاتي ، آمل الا يتقابل بدهشة من احد ، مثلما آمل الا يندهش احد من كوني اتكلم فيها عن الدور الذي لعبته بنفسي في هذا التاريخ . آية ذلك ان التحليل النفسي هو من صنعي : فعلى مدى عشر سنوات لم يكن احد غيري يهتم به ، وعلى مدى عشر سنوات كانت على راسي تنهال الانتقادات التي بها عبَّر المعاصرون عن نفورهم من التحليل النفسي وعن تبرمهم منه . بل يخيل الي انه بوسعي ان اجزم بأن ما من احد ، الى يومنا ، يعرف خيرا مني ما كنه التحليل النفسي، وما موضع اختلافه عن سائر أشكال استكشاف الحياة النفسية ، وما الذي يمكن ان يعنيه هذا المصطلح او ما الذي يناسبه ان يُسمى بغير هذا الاسم .

---

١ ـ باللاتينية في النص : شعار مدينة باريس التي يرمز اليها مركب. ـم ـ

لقد كانت سنحت لي الفرصة ، في عام ١٩٠٩ ، للكلام لاول مرة امام جمهور عام ، من على منبر جامعي اميركي ، عن التحليل النفسي [٢] ؛ وقد صرحت يومئذ ، ادراكا مني لما يمكن ان يكون لهذا الحدث من تأثير على الاهداف التي انشد ، انني لست انا الذي ابتكر التحليل النفسي ، وان هذا الفضل انما يعود الى جوزيف بروير [٣] Breuer ، فيما كنت انا ما ازال طالبا ، شاغلي اجتياز امتحاناتي (من ١٨٨٠ الى ١٨٨٢) . غير ان بعضا من الاصدقاء ممن يحدبون عليّ لفتوا انتباهي الى غلوي واسرافي في التعبير عن عرفاني بالجميل ، والى انه كان عليّ ، نظير ما فعلت في فرص سابقة ، أن أوضح ان «طريقة بروير التطهيرية» تشكل طورا تمهيديا من أطوار التحليل النفسي ، وأن هذا الاخير رأى النور يوم نحّيت جانبا تقنية التنويم المغنطيسي لأحل محلها

---

٢ ـ يشير فرويد هنا الى محاضراته الخمس التي القاها في جامعة كلارك الاميركية . راجع ترجمتنا لهذه المحاضرات في **خمسة دروس في التحليل النفسي** ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٧٩ .

٣ ـ جوزيف بروير : زميل لفرويد عمل معه في بداية حياته العلمية في مختبر الدكتور برك واشترك معه في عام ١٨٩٥ في تأليف كتاب بعنوان **دراسات في الهستيريا** . وكان بروير يكبره بأربعة عشر عاما ، وكان يستخدم التنويم المغناطيسي في علاج المرضى النفسانيين ، ثم ما لبث ان استعاض عنه بمنهج التطهير (كاثارسيس) الذي يقوم على انتزاع الاسرار التي ترهق المريض من افكار وعواطف مكبوتة . ولكن فرويد لم يقف عند الحد الذي كان وصل اليه بروير ، فانفصمت عرى التعاون بين الاثنين ، ومضى فرويد في طريق التحليل النفسي وحيدا . وقد كتب عن بروير في «حياتي والتحليل النفسي» يقول : «لقد كلفني نمو التحليل النفسي صداقته . لم يكن من السهل عليّ دفع هذا الثمن لكن لم يكن في مقدوري ان اتفادى ما كان» . —م—

تقنية التداعي الحر . والحق انه ليس امرا بذي بال ان تكون بدايات التحليل النفسي مرتبطة بالطريقة التطهيرية او بالتعديل الذي ادخلته على هذه الطريقة ؛ ولئن اتيت هنا بذكر هذه النقطة التاريخية ، العديمة الاهمية ، فلأن بعض خصوم التحليل النفسي لا يحجمون ، بالمناسبة ، عن الاعلان بأنه انما الى بروير ، لا الي ، يعود الفضل في خلق هذا الفن . غير انه لا بد لي من ان أضيف ان أسبقية بروير لا ينوه بها الا اولئك الذين يعزون قيمة ما الى التحليل النفسي ؛ اما اولئك الذين ينكرون عليه كل قيمة فلا يترددون في عزو ابوّته الي بلا شريك . وعلى حد علمي ، فان القسط الوفير الذي اسهم به بروير في ابتكار التحليل النفسي لم يعد عليه ولو بنزر يسير من الشتائم وضروب الملامة التي هيلت عليّ . وبما انني أقررت منذ زمن بعيد بأن التحليل النفسي يتميز بقدرة لا تقاوم على اثارة سخط الناس وعلى دفعهم الى وقوف موقف المناقَضة ، فقد انتهيت الى استنتاج مؤداه انه لا مانع يحول دون ان اكون الصانع الحقيقي لكل ما يميزه وما يجعل منه هو التحليل النفسي . وانه ليطيب لي ان أضيف القول ان بروير لم يسع قط الى الخفض من شأن دوري في خلق التحليل النفسي الذي هو موضع تشنيع المشنّعين ، وانه لم يبد قط اية مساندة للمحاولات التي يبذلها في هذا الاتجاه أخصامي .

لقد سبق ان شرحت طبيعة اكتشاف بروير وعرضت مرارا وتكرارا ، مما يغنيني هنا عن كل مناقشة مفصّلة بصدد هذا الموضوع . وسأعيد الى الاذهان فقط ان الواقعة الاولى التي ينطلق منها هي ان أعراض الهستيريين ترتبط بمشاهد من حياتهم (رضات Traumatismes) ، طوتها يد النسيان بعد أن تركت فيهم وقعا عظيما ؛ وان ملاحظة هذه الواقعة قد املت طريقة علاجية تقوم على استحضار ذكرى تلك المشاهد ، تحت تأثير التنويم ، وعلى اعادة انتاجها (التطهير Catharsis) . لذا تراءى له انه يسعه أن يصوغ استنتاجا نظريا مؤداه ان الاعراض

المذكورة تنجم عن استعمال غير سوي لكميات تنبيهية غير محرّرة (تحـــــول Conversion) . وفي كل مرة تسنح فيها الفرصـــة لبروير للحديث عن التحول في مساهمته النظرية في **الدراسات في الهستيريا** ، لا يتوانى عن ذكر اسمي بين قوسين ، وكأن تلك المحاولة الاولى للتعليل النظري هي ملكي الروحي . واعتقد ان هذه الملكية لا تتعدى اللفظة ، اما التصور ذاته فقد انبثق فـــي ذهنينا في آن معا وهو ملكنا المشترك .

معلوم ايضا ان بروير هجر ، بعد تجربته الاولى ، طريقتـــه التطهيرية ، ولم يرجع اليها الا بعد مرور سنوات عدة ، يوم يخيل الي ، لدى عودتي من باريس حيث تابعت دروس شاركو (٤) ، ان من واجبي ان الح عليه والحف ليفعل ذلك . كان آنئذ موليـــا اهتمامه كله للطب الداخلي ، وكانت كثرة زبائنه تستغرق وقته كله . اما انا فما اصبحت طبيبا الا على كره مني ، وكان عندي سبب وجيه للغاية يحفزني على محاولة مد يد المعونة للنـــــاس المصابين بالامراض العصبية ، او على الاقل على محاولة النفاذ بقدر او بآخر الى طبيعة حالاتهم .

في بادىء الامر كنت قد وضعت ثقتي في المعالجة الفيزيائية؛ لكني ما عتمت ان وجدت نفسي عاجزا ومفلول السلاح امـــام الخيبات التي سببها لي كتاب **المعالجة الكهربائية** ، بقلم و. إرب ERB ، الثر بالنصائـح والارشادات . ولئن لم يخطر لي ببال يومئذ راي موبيوس Moebius القائـل بأن نجاحات المعالجـــة الكهربائية انما مردها الى الايحاء ، فذلك لسبب فـــي منتهى

٤ ـ جان مارتن شاركو : طبيب فرنسي (١٨٢٥ ـ ١٨٩٣) ، اشتهر بأبحاثه في مضمار الامراض العصبية ، ودرس عليه فرويد بين ١٨٨٥ و١٨٨٦ ، وترجم له دروس في **امراض الجهاز العصبي** ، سنة ١٨٨٦ . ـم ـ

البساطة : اذ لم أحرز حى نجاحا واحدا . وقد تهيأ لي لوهلة من الزمن ان المعالجة بالايحاء أثناء التنويم العميق ـ وكنت قـــد حضرت جلسات لمثل هذه المعالجة لدى ليبيـــــو Liébault وبرنهايم (٥) Bernheim فشدهت لفاعليتهـــا ـ تقدم لـــي تعويضا واسعا عن هجري لطريقة المعالجة الكهربائية . لكن السبر اثناء التنويم ، الذي علمني بروير قواعده ، مارس عليّ ، بفاعليته الآلية وبإشباعه فضولي العلمي ، جذبا اعظم بما لا يقاس مـــن التحظير الايحائي ، الرتيب ، العنيف ، المنافـــــي للسبر بحصر المعنى .

اننا نعلم اليوم ـ وهذا من احدث ما توصل اليه التحليـــل النفسي ـ أن علينا ان نعطي مكانة الصدارة ، اثنـــاء التحليل ، للصراع الراهن وللعلة المحدّدة للمرض . والحال ان هذا بالضبط ما فعلناه ، بروير وانا ، منذ تطبيقاتنا الاولى للطريقة التطهيرية . فقد كنا نلفت مباشرة انتباه المريض الى المشهد الرضي الذي ظهر اثناءه العرض ، وكنا نسعى الى اقتصاص اثر الصراع النفسي في ذلك المشهد والى اطلاق الشعور المكبوت من عقاله . وبنهجنا هذا النهج افلحنا في اكتشاف السيرورة النفسية المميزة للاعصبـــة Névroses ، وهـــي السيرورة التي أطلقنا عليها فيما بعد اسم **النكوص** Régression . وكانت تداعيـات المريض ترتد مـــن المشهد الذي نعمل على اعادة بنائه الى أحداث نفسية سابقة ، وترغم التحليل الذي يبغي تصحيح الحاضر على الاهتمام بالماضي. وكان هذا النكوص يعود بنا القهقرى الى الوراء اكثر فأكثر، وبوجه عام الى زمن البلوغ ، على ما خيل الينا في بادىء الامر ؛ لكن بعض

٥ ـ ليبو وبرنهايم : طبيبان من مدينة نانسي الفرنسية كانا يعالجـــان المرضى بالايحاء التنويمي ، وقد درس عليهما فرويد لفترة وجيزة من الزمن سنة ١٨٨٩ ، وترجم لثانيهما كتابه **عن الايحاء وتطبيقاته العملية**، سنة ١٨٨٨ . ـم ـ

الاخفاقات وبعض الثغرات دفعت التحليل الى متابعة النكوص وصولا الى سنوات الطفولة التي لبثت الى ذلك الحين عصية على كل سبر . وما عتم هذا التوجه ان غدا واحدة من السمات المميزة للتحليل . وقد تحقق لنا ان التحليل عاجز عن فك سر الحاضر من دون ارجاعه الى ماض ليس بحد ذاته ممرضا Pathogène , ولكنه هو الذي يضفي مع ذلك على الحدث اللاحق طابعه الممرض.

على ان اغراء التمسك بالعلة الراهنة المعروفة كان شديدا الى حد ما امكنني معه الافلات من شباكه طيلة سنوات عديدة اخرى. واثناء معالجة (سنة ١٨٩٩) المريضة المعروفة باسم «دورا» (٦) ، كنت اعرف المشهد الذي تسبب في ظهور المرض الراهن . وكنت قدحاولت مرارا وتكرارا ان اضع في متناول التحليل ذلك الحدث النفسي من دون ان أحصل قط ، بالرغم من أوامري المباشرة ، على شيء آخر غير الوصف المجمل والمليء بالثغرات عينه . وانما بعد التفافة طويلة ، قادتنا القهقرى الى ما قبل الطفولة الاولى للمريضة ، وجدنا انفسنا وجها لوجه امام حلم امكن ، بواسطة تحليله ، استعادة تفاصيل المشهد المنسية ، وهذا ما هيأ الامكانية لفهم الصراع الراهن ولحله معا .

هذا المثال وحده يكفي لبيان ما الاخطاء التي يعرض المرء نفسه للوقوع فيها فيما لو اخذ بالنصيحة التي اشرنا اليها أعلاه ، ومدى إذنابه بحق التقدم العلمي فيما لو اهمل النكوص في التقنية التحليلية .

نشب أول خلاف في وجهات النظر بيني وبين بروير بصدد

٦ – دورا : اسم مستعار اطلقه فرويد على فتاة في الثامنة عشرة عالجها من آفة عصبية ، وسجل تفاصيل العلاج في نص جعل عنوانه **الحلم والهستيريا**. وقد نشره في وقت لاحق (سنة ١٩٠٥) بعنوان **نبذة من تحليل اصابة هستيرية**.

– ٢ –

مسألة مرتبطة بالاوالية النفسية الباطنة للهستيريا . فقد كان يحبذ نظرية ما تزال فيزيولوجية ، ان جاز القول ، مؤداها ان علة الانفصام النفسي للمريض بالهستيريا انعدام الاتصال بين شتى الحالات النفسية (او كما كنا نقول آنئذ بين «شتى حالات الوعي») ؛ وعلى هذا فقد صاغ فرضية «الحالات النوامية» التي تقتحم منتجاتها «الوعي اليقظ» لتسلك فيه مسلك الاجسام الغريبة . ولما كنت اقل تزمتا من وجهة النظر العلمية ، وارتاب في ان المسألة مسألة ميول ونوازع مشابهة لميول الحياة اليومية ونوازعها ، فقد رايت في الانفصام النفسي عينه معلولا لسيرورة اقصاء وإزاحة اطلقت عليها يومئذ اسم سيرورة «الدفاع» او «الكبت» . وقد حاولت جهدي ان ابقي على تينك الاواليتين واحدتهما بجانب الاخرى ، لكن بما ان التجربة كانت تهديني على الدوام الى الشيء نفسه ، لذا لم اتأخر عن معارضة نظرية الحالات النوامية بنظريتي في الدفاع .

غير انني متأكد من ان هذه المعارضة لم يكن لها من ضلع في الانفصال الذي ما عتم ان وقع بيننا . فقد كان وراء هذا الانفصال اسباب أعمق وابعد غورا ، لكنه حدث على نحو ما امكنني معه لا التنبه له من البداية ولا فهمه الا في زمن لاحق وطبقا لبيّنات لا يتطرق اليها الشك . تذكرون ولا بد ان بروير كان يقول عن مريضته المشهورة الاولى ان العنصر الجنسي لديها يمثل درجة من التطور غير كافية على الاطلاق وانه لم يسهم قط من قريب او بعيد في الغنى الملحوظ لجدولها المرضي . ولطالما استغربت الا يكون قد خطر للنقاد ان يقيموا – اكثر مما فعلوا – مقابلة بين تصريح بروير ذاك وبين تصوري الخاص للاتيولوجيا الجنسية للأعصبة ، وما زلت الى يومنا هذا أجهل ان كان هذا الاغفال قد أملاه عليهم حسن التقدير او قلة الانتباه . ولو اعاد المرء قراءة ملاحظة بروير على ضوء التجارب المكتسبة خلال العشرين سنة

الاخيرة ، لوجد ان كل تلك الرمزية الممثلة بالثعابين (٧) ، وبنوبات التخشب ، وبشلل الذراع ، شفافة الى حد لا مستزاد عليه ، ولو ربط الموقف بالسرير الذي كان الاب المريض ممددا عليه لحصل على تأويل للاعراض يتبخر معه كل شك بصدد مدلولها . وبذلك يتوصل الى تكوين فكرة عن دور الجنسيـــــة Sexualité في الحياة النفسية لتلك الفتاة مغايرة تماما لفكرة طبيبها . لقد كان في متناول بروير ، من اجل شفاء مريضته ،« نتاج »ايحائي مكثف ، نتاج نستطيع ان نرى فيه بالتحديد نموذجا أوليا لما نسميه بـ «التحويل» (٨) . ولي من الاسباب الوجيهة ما يحملني على الاعتقاد بأن بروير ، بعد ان ازال الاعراض جميعا ، قد وجد نفسه ، ولا بد ، امام دلائل جديدة تؤيد التحفيز الجنسي لذلك التحويل ، لكنه أوقف سيره عند هذا الحد كما لو امام «حادث مزعج» لانـــه ما استطاع فهما للطابع العام لهذه الظاهـــــرة اللامتوقعة . وهو لم يطلعني بصورة مباشرة على شيء بهــــذا الخصوص ، لكنه قدم لي ، في اكثر من مناسبة ، نقاط استدلال كافية لتبرير هذا الافتراض . ويوم تبينت بصورة نهائية التصور عن الدور الاساسي الذي تلعبه الجنسية في جبرية الاعصبة ،

٧ ـ كان بروير قد شرع سنة ١٨٨٠ بمعالجة فتاة مهسترة أسماها آنا. أ (واسمها الحقيقي مارتا بابنهايم) ، وكان من جملة الاحلام التي رأتها انها كانت جالسة بقرب سرير والدها المريض ، فرأت ثعبانا اسود يخرج من الحائط ويدنو من المريض ليعضه . وأرادت ان تطرده ، ولكنها كانت كالمشلولـــة : وكانت ذراعها اليمنى ، المتدلية فوق الكرسي ، شبه مخدرة ، وحين نظرت اليهـــا تحولت الاصابع الى ثعابين صغيرة ذات جماجم (الاظافر) . ــم ــ

٨ ـ التحويل Transfert : أواليـــة نفسية يحول المريض العصابي من خلالها جملة من المشاعر والعواطف الايجابية او السلبية (حب او كراهية) نحو المحلل او الطبيب الذي يعالجه . ــم ــ

اصطدمت من جانبه تحديدا بردود الفعل الاولى لذلك الكدر في المزاج ولذلك الاستهجان اللذين باتا مألوفين لدي فيما بعد ، مع انني ما كنت ، في الفترة الزمنية التي أتحدث عنها ، لأتوقع ان يلاحقاني طول حياتي كالقدر .

ان التحويل الجنسي ، أيا يكن لونه ، وسواء أكان وديا ام عدائيا ، واقعة ملحوظة دوما اثناء علاج العصاب ــ مهما تكـــن طبيعته ــ من دون ان يرغب فيها او يحض عليها اي طرف مـــن الطرفين المتواجهين . وواقعة التحويل الجنسي هذا قد بدت لي على الدوام بمثابة دليل لا يدحض على الاصل الجنسي لقـــوى العصاب الحافزة . وهذا الدليل لم يحظ بعد بكل الانتباه الذي يستأهله ، ولم يحمل قط على محمل الجد الكافي ، اذ لو حصل ذلك لكان الرأي بصدد هذا الموضوع انعقد له الاجماع في هذه الســاعة . اما انا فقد اعتبرته على الدوام قاطعا ، مثله في ذلك (وربما اكثر) مثل العديد من المعطيات الاخرى التي يمدنا بهـــا التحليل .

لقد كان ايماني بأنني اكافح في سبيل فكرة جديدة ومبتكرة هو بمثابة عزاء لي عن سوء الاستقبال الذي قوبل به تصوري عن المنشأ الجنسي للاعصبة ، وهذا حتى في حلقة اصدقائي الضيقة (اذ ما عتمت دائرة من الفراغ ان تشكلت حول شخصي) . بيد ان ذكريات محددة استيقظت فيّ ذات يوم لتعكر عليّ صفوي ، ولتكشف لي في الوقت نفسه بعض التفاصيل المثيرة للغاية بصدد الكيفية التي يتم بها نشاطنا الخلاق وبصدد طبيعـــة معرفتنا . فالفكرة التي اخذت مسؤوليتها على عاتقي لم تكن بحال مـــن الاحوال فكرة شخصية . وانما أدين بها لثلاثـــة اشخاص كانت آراؤهم تحظى مني بأعظم الاحترام : بروير نفسه ، وشاركو ، والاختصاصي في الامراض النسائية في جامعتنا ، شروباك الذي هو من ألمع اطبائنا في فيينا . فقد أورثني هؤلاء الرجال الثلاثة

تصوروا ما كان ملكا لهم بحصر معنى الكلمة . وقد انكر اثنان منهم هذا الارث ؛ أما ثالثهم (الاستاذ شاركو) فقد كان سيحذو حذوهما فيما لو أتيح لي ان التقيه ثانية . وهذه المواريث المتماثلة، التي تمثلتها من دون ان أفهمها ، هي التي تناومت فيّ لسنوات عديدة لتستيقظ ذات يوم في صورة تصور مبتكر ، كأن لا فضل فيه لاحد غيري .

لقد رافقت ذات يوم ، وأنا طبيب مستشفيات غرّ ، بروير في نزهة عبر المدينة ، فاذا بسيد يعترض سبيله ويطلب اليه بإلحاح ان يكلمه . تأخرت عنهما ، ولما انتهت محادثتهما رجع بروير نحوي وأفادني بطريقته المحببة في الافضاء بالمعلومات ، ان الرجل هو زوج مريضة وأنه أطلعه على أخبارها . وأضاف يقول ان المرأة كانت تتصرف في المجتمع تصرفا غريبا حمل ذويها ، وقد عدوها مريضة عصبية ، على ان يعهدوا بها لعنايته . وختم قائلا ان الامر هنا ايضا يتعلق **بأسرار مخدع النوم** . فسألته ، وقد اخذتني الدهشة ، ما قصده بقوله هذا ؛ فشرح لي عندئذ ما يعنيه بالضبط ، مستبدلا عبارة «مخدع النوم» بعبارة «الفراش الزوجي» ، وأبدى عجبه لاستغرابي التعبير الاول .

بعد بضع سنوات حضرت حفل تكريم لشاركو . كنت واقفا على مقربة من الاستاذ الجليل ، وكان يروي لبروارديل Brouardel واقعة ، مثيرة للاهتمام جدا في ارجح الظن ، من الوقائع التي مرت به في ممارسته . وما كنت أصغيت بانتباه الى بداية القصة ، لكنها ما عتمت ان اثارت اهتمامي حتى شدت انتباهي كله . كان موضوعها زوجين من الشرق البعيد ؛ الزوجة تعاني وتكابد الامرّين ، بينما الزوج عنين او اخرق تماما . وسمعت شاركو يردد : «حاول ، حاول وستنجح ، أؤكد لك» . وأعرب بروارديل على ما يبدو ــ وكان أخفت صوتا ــ عن دهشته من ان تكون اعراض كأعراض المرأة المعنية قد ظهرت في مثل تلك الظروف . وبالفعل ، اجابه شاركو بحدة : «بلى ، في مثل هذه

الاحوال ، المسألة تناسلية دوما ... دوما ... دوما» . وفيما هو يردد ذلك صلّب ذراعيه على صدره وطفق ينطنط بحيويته المعهودة . اذكر انني لبثت مذهولا لبضع ثوان ، ولما تمالكت امري طرحت على نفسي هذا السؤال : «ما دام يعلم ذلك ، فلما لم يقله قط ؟» . لكنني سرعان ما نسيت هذا الانطباع ؛ واستغرق تشريح الدماغ والاصطناع الاختباري للشلل الهستيري من جديد انتباهي كله .

بعد ذلك بعام واحد ــ وكنت ما ازال استاذ خاصا بالامراض العصبية (٩) ــ بدأت بامتهان الطب ، وانا جاهل كأي جامعي غرّ تعمر الآمال فؤاده بعلم منشأ الاعصبة وأسبابها . وذات يوم رجاني شروباك ان أتولى معالجة احدى مريضاته بالنظر الى عدم توفر الوقت له للاعتناء بها بعد ان صار أستاذا بكرسي . وهرعت الى المريضة ، ووصلت اليها قبله ، وعلمت انها تعاني من نوبات حصرية لا تعليل لها ولا تستطيع لها تسكينا الا اذا علمت بالضبط اين طبيبها موجود في كل آن من آناء النهار . ووصل شروباك بدوره ، وانفرد بي ليعلمني إن حصَر المريضة متأتٍ من كونها ما تزال عذراء رغم مرور ١٨ سنة على زواجها ، وذلك لان زوجها مصاب بعنة تامة . وأضاف قوله : في مثل هذه الاحوال لا يبقى امام الطبيب الا ان يغطي بما له من سلطة وهيبة على المأساة العائلية ، وأن يكتفي بهز كتفيه اذا ما تناهى الى علمه ان الناس تصدر بحقه تقييمات من هذا النوع : «انه ليس أشطر من غيره ، فهو لم ينجح في شفاء المريضة رغم انه يعالجها منذ سنوات عديدة» . فهذا الداء ليس له الا دواء واحد ؛ ونحن نعرفه جيدا ،

---

٩ ــ استاذ خاص Privat - Docent : استاذ جامعي حر في المانيا يتقاضى مكافآته من الطلاب مباشرة . ــم ــ

لكننا ، ويا للاسف ، لا نستطيع وصفه . وهو : RP. Penis Normalis Dosim Repetatur ! (١٠) .

ما كنت قد سمعت قط بمثل هذه الوصفة ، ووجدتني بيني وبين نفسي ألوم راعيَّ على مجونه .

انني اذ الح على هذا الاصل الجليل للتصور الذي ناله ما ناله من التحقير والتشنيع ، فليس ذلك كيما ألقي تبعته على عاتق الآخرين . وانا أعلم ان التعبير عن فكرة ما مرة او مرات عدة في شكل نبذة سريعة شيء ؛ وان حملها على محمل الجد ، بمعناها الحرفي ، وتطويرها من خلال تفاصيل شتى ، مناقضة لها في كثير من الاحيان ، وانتزاع مكان لها بين الحقائق المعترف بها ، شيء آخر . وهذا فارق يشبه الفارق بين غزل خفيف وزواج مستقيم ، بكل ما يترتب عليه من واجبات ومصاعب . يقول الفرنسيون بسداد : «تزوج افكار فلان ...» .

بين العناصر الاخرى التي قيض لها ، بفضل ابحاثي ، ان تنضاف الى الطريقة التطهيرية لتحولها الى تحليل نفسي، سأخص بالذكر : نظرية الكبت والمقاومة ، وتصور الجنسية الطفلية ، وتأويل الاحلام والتوسل بها لمعرفة اللاشعور .

اما فيما يتعلق بنظرية الكبت ، فقد وصلت اليها بكل تأكيد بجهودي الخاصة ، من دون ان يوحي الي اي مؤثر بامكانيتها . وعليه ، داخلني الاعتقاد لزمن طويل بأنها مبتكرة ، الى ان وضع اوتو رانك ذات يوم تحت ناظريَّ مقطعا من **العالم كارادة وتصور**، يحاول فيه شوبنهاور ان يجد تفسيرا للجنون (١١) . وما يقوله الفيلسوف في هذا المقطع حول ما يساورنا من نفور من

١٠ – باللاتينية في النص : «من طبيعة القضيب الطبيعي ان يعاود الكرة » . —م—

١١ – **المجلة المركزية للتحليل النفسي** ، ١٩١١ ، م١ ، ص ٦٩ .

الاعتراف بهذا الجانب **المؤلم** او ذاك من جوانب الواقع يتفق كل الاتفاق مع فكرة الكبت ، كما أتصورها ، الى حد يبيح لي ان أكرر القول مرة اخرى بأنني لا ادين باكتشافي الا لنقص مطالعاتي .

ومع ذلك ، فقد قرأ غيري هذا المقطع وأعاد قراءته من دون ان يتوصل الى الاكتشاف المذكور ، ولعل الشيء نفسه كان سيحدث لي لو وجدت في نفسي ، في شبابي ، مزيدا من الميل الى القراءات الفلسفية . وقد ضننت على نفسي فيما بعد بمتعة قراءة نيتشه، وقد فعلت ذلك وانا على اتم وعي بأسباب استنكافي: فقد كان مقصدي الا اقع تحت اي تأثير خارجي وانا ادوّن واطور الانطباعات التي يمدني بها التحليل النفسي . وعليه ، فانني اعلن استعدادي ، عن طيب خاطر ، للتخلي عن كل دعوى بالاسبقية في الحالات – وهي كثيرة – التي يكون فيها كل دور الابحاث التحليلية النفسية الشاقة توكيد صحة كشوف الفلاسفة الحدسية .

ان نظرية الكبت هي الأس الذي يقوم عليه بنيان التحليل النفسي ؛ وهي الجزء الاكثر جوهرية منه وان كانت لا تمثل سوى التعبير النظري عن تجربة يمكن للمرء تكرارها بقدر ما يرغب كلما اخضع للتحليل مريضا عصابيا من دون ان يلجأ الى التنويم . ففي لحظة محددة يصطدم بمقاومة تعارض العمل التحليلي ، اذ يتذرع المعالَج بفجوة في الذاكرة ليبطل فاعلية ذلك العمل . ولو لجأ الطبيب الى التنويم لما أفلح الا في اخفاء تلك المقاومة وحجبها ، ولهذا فان تاريخ التحليل النفسي بحصر المعنى لم يبدأ الا يوم ظهور التجديد التقني المتمثل في هجر التنويم . والتأويل النظري للتطابق بين تلك المقاومة وبين نساية ما يقود حتما الى تصور النشاط النفسي اللاواعي ، وهو التصور الذي يقول به التحليل النفسي والذي يختلف ، على كل حال ، اختلافا بيّنا عن تأملات الفلاسفة بصدد اللاشعور . وعليه ، يمكن القول ان النظرية التحليلية النفسية تمثل محاولة لتعليل ملاحظتين غريبتين

ولامتوقعتين يلاحظهما المرء حينما يسعى الى رد اعراض العصابي المرضية الى مصادرها ، اي الى خبرات طارئة في حياة المريض السابقة : نعني بهما التحويل والمقاومة . وكل توجه يتخذ من هاتين الواقعتين نقطة انطلاق له يحق له تسمية نفسه تحليلا نفسيا ، حتى ولو خلص الى نتائج مغايرة لتلك التي حصلت عليها انا نفسي . بيد ان من يتصدى لجوانب اخرى من المشكلة ويضرب صفحا عن هاتين المقدمتين ، لن يكون بوسعه ، اذا ما أصر على اعتبار نفسه محللا نفسيا ، ان يفلت من تهمة تعكير حق الملكية بمحاولة **التقليد الايمائي** .

انني لن اتردد في رفع صوتي بقوة احتجاجا على كل من قد يعن بباله ان يزعم ان نظرية التحويل ونظرية المقاومة مقدمتان للتحليل النفسي ، لا نتيجتان له . فللتحليل النفسي مقدماته ، لكنها ذات طابع سيكولوجي وبيولوجي بوجه عام ، ولا مجال للحديث عنها . اما نظرية الكبت فهي نتاج للعمل التحليلي ونتيجة محرزة بوسائل مشروعة وتمثل الخلاصة النظرية لتجارب لا تقع تحت حصر . وقد توصلنا الى انجاز مماثل ، وان متأخر ، في تصور الجنسية الطفلية الذي ما ورد له ذكر خلال السنوات الاولى من تلمس التحليل النفسي لطريقه . والواقعة الوحيدة التي وقعت من البداية تحت المعاينة هي وجوب اعتبار الخبرات النفسية الراهنة معلولات للماضي . لكن «الباحث كثيرا ما يهتدي الى اكثر مما كان يريد الاهتداء اليه» . وهكذا وجدنا انفسنا نساق الى ازمنة أنأى فأنأى من الماضي ، وتراءى لنا في وقت من الاوقات انه في مستطاعنا التوقف عند البلوغ ، اي زمن اليقظة التقليدية للميول الجنسية . بيد ان هذا الامل كان باطلا ، اذ ان اقتفاءنا للآثار قادنا الى ما قبل ذلك العهد ، وصولا الى الطفولة ، بل الى السنوات الاولى من هذه الطفولة . وفي اثناء ذلك وجدنا لزاما علينا ان نذلل خطأ كان يمكن ان يكون قاضيا بالنسبة الى ذلك الاتجاه العلمي الفتي. فتحت تأثير النظرية الرضية للهستيريا،

ذات الصلة بتعاليم شاركو ، كنا نجد في انفسنا نزوعا قويا الى عزو واقع ومدلول اتيولوجيين (١٢) الى روايات المرضى التي يرجعون فيها أعراضهم الى تجارب جنسية كانوا موضوعها السلبي في ابان السنوات الاولى من طفولتهم ، وبعبارة اخرى ، الى ما جرت العادة على تسميته بـ «التغرير بالقُصَّر» . ولما اضطررنا بعد ذلك الى العزوف عن هذه الاتيولوجيا ، لعدم مطابقتها للواقع ولتناقضها مع البيّنات الثابتة ، وقعنا في حيرة شديدة من امرنا. فهل اتبع التحليل الذي افضى الى هذه الرضات الجنسية الطفلية طريقا خاطئا اذن ، بعد ان اتضح ان هذه الرضات تفتقر الى اي اساس واقعي ؟ ما كنا ندري بأي مستند نتمسك . وكنت على استعداد للتضحية بكل العمل الذي انجزته ، على نحو ما فعل سلفي الموقر بروير في أعقاب اكتشافه غير المرغوب فيه . ولئن لم افعل ذلك ، فذلك في الاغلب لانه لم يكن لي من خيار ، ولم اكن املك ان أسلك اية وجهة اخرى . وفي نهاية المطاف قلت بيني وبين نفسي انه ليس من حقي ان اترك عزيمتي تتثبط لمجرد ان الآمال التي كنت أعلل النفس بها لم تتحقق ؛ وانه أولى بي بالاحرى ان أعيد النظر في هذه الآمال عينها . فحين يربط الهستيرون اعراضهم برضات مختلفة ، فان الواقعة المستجدة تتمثل على وجه التحديد في كونهم يتخيلون تلك المشاهد تخيلا ، مما يرغمنا على ان ناخذ بعين الاعتبار الواقع النفسي والممارسة على حد سواء . وما عتمت ان استخلصت من ذلك ان الفرض من تلك الخيالات اخفاء النشاط الايروسي الذاتي للطفولة الاولى ، وإحاطته بهالة ما ، ورفعه الى مستوى اعلى . وما ان تأكدت لي هذه الواقعة ، حتى ابصرت بحياة الطفل الجنسية تجري على

---

١٢ – الاتيولوجيا : علم اسباب المرض . ـ م ـ

مراى مني بكل اتساعها .

اخيرا ، فان هذا النشاط الجنسي لسنوات الطفولة الاولى كان يمكن ايضا ان يُعد تظاهرا للجبلّة الخِلقية Constitution Congénitale . فقد كان كل شيء يبيح لنا الافتراض بأن الاستعدادات الخِلقية والتجارب النفسية اللاحقة تتراكب هنا لتؤلف كلا واحدا غير قابل للقسمة : فمن جهة تحول الاستعدادات الخلقية الانطباعات البسيطة الى رغبات ، الى مصادر اثارة ونقاط تثبيت ، مع انه لولا الاستعدادات الخلقية لبقيت الانطباعات ، ذات الطابع العادي بوجه عام ، بلا مفعول ؛ ومن الجهة الثانية تستحضر التجارب النفسية اللاحقة عناصر من الاستعداد الجبلّي ، مع ان هذه العناصر كانت ستظل غافية لامد طويل من الزمن او ما كانت لتتظاهر على الاطلاق لولا تلك التجارب. وابراهام هو الذي كان (١٩٠٧) صاحب القول الفصل في مسألة الاتيولوجيا الرضية ، بإيضاحه ان خصوصية تجارب الطفل الجنسية ، اي صفتها الرضية ، ذات صلة بالطبيعة الخاصة لجبلّته الجنسية (١٣) .

كانت ملاحظاتي بصدد جنسية الطفل لا تستند في بادىء الامر الا الى نتائج التحاليل المجراة على راشدين والمتوغلة الى خبرات نائية زمنيا من حياتهم الماضية . ولم تسنح لي الفرصة يومئذ للقيام بمعاينات مباشرة على الطفل . ولهذا كان ظفر عظيم

---

13 — Klinishe Beitrage Zur Psychoanalyse Aus Den Jahren 1907 - 1910 . (مساهمات سريرية في التحليل النفسي عن السنوات ١٩٠٧– ١٩١٠ .
Internat. Psychoanalytische Bibliothek, Band 10, 1921.
(المكتبة الدولية للتحليل النفسي ، المجلد ١٠ ، ١٩٢١) .

لي حين افلحت ، بعد انقضاء عدد لا بأس به من السنوات ، في الحصول على توكيد لصحة معظم استنتاجاتي عن طريق اخضاع اولاد صغار جدا للملاحظة والتحليل المباشر . بيد ان ما افسد عليّ الى حد ما هذه الفرحة فكرة تسلطت علي ومؤداها ان الامر لا يعدو ان يكون في خاتمة المطاف امر اكتشاف يخلق بمن اكتشفه ان يخجل من نفسه . وكلما رحت اتابع ملاحظة الاطفال واتعمق فيها ، كانت الواقعة المذكورة تتبدى لي بمزيد من الوضوح والفهم ، فكنت ازداد استغرابا لما جشمنا انفسنا من مشقة حتى لا نتبيّنها .

حتى يصل المرء الى مثل هذا الاقتناع الاكيد بوجود الجنسية الطفلية وبأهميتها ، فلا بد له ان يتتبع طريق التحليل ، وان يعود القهقرى من اعراض الاعصبة وغرائبها الى منابعها الاخيرة ؛ فاذا ما اكتشف هذه المنابع حصل على تفسير لما هو قابل للتفسير واقتدر على تعديل ما هو قابل للتعديل . وانا ادرك انه من الممكن المرء ان يصل الى نتائج اخرى اذا ما بدأ ، كما فعل ك.غ. يونغ مؤخرا ، بتكوين فكرة نظرية لنفسه عن طبيعة الغريزة الجنسية ، ليسعى من ثم الى فهم الحياة الطفلية على ضوء هذه الفكرة . فمثل هذه الفكرة لا يمكن الا ان تكون عسفية او ان تستجيب لاعتبارات لا دخل لها بالموضوع قيد البحث ؛ ومن هنا يجازف المرء بان يجد نفسه في موقف غير مطابق في المضمار الذي يطبقها فيه . ولا ريب في انه ستواجهنا ، حتى لو اتبعنا الطريق التحليلي ، صعوبات ونقاط غامضة فيما يتعلق بالجنسية وصلاتها بحياة الفرد الشاملة ؛ لكن ليس بالتأملات المجردة سنفلح في تذليل هذه الصعوبات وايضاح هذه النقاط الغامضة . وخير ما نفعله في هذه الحال ان ننتظر ان تأتينا الملاحظات والمعاينات المجراة في مضمار آخر بحل آخر الالغاز .

سألزم جانب الاقتضاب فيما يتعلق بتأويل الاحلام . فقد كان هذا التأويل النتيجة الاولى ، ان صح القول ، للتجديد التقني

الذي تبنيته ، يوم قر قراري ، نزولا عند حدس مبهم ، على ان استبدل التنويم بالتداعي الحر . وليس الفضول العلمي هو اول ما دفعني الى طلب فهم الاحلام . وعلى حد علمي ، لم يكن لأي تأثير دور في توجيه اهتمامي هذا الاتجاه ، كما لم يتح لي ان استشف اية نتائج خصبة في هذا المضمار . وحتى قبل قطع صلاتي ببروير ، ما تسنت لي الفرصة لاعلامه ، ولو باقتضاب ، بانني شرعت بتأويل الاحلام . وبالنظر الى الكيفية التي توصلت بها الى الاكتشاف الاخير هذا ، فان رمزية لغة الاحلام لم تتكشف لي الا في آخر المراحل ، وذلك لان تداعيات الحالم لا تعلمنا الا النزر اليسير عن الرموز . ولما كنت قد حافظت على عادة دراسة الاشياء مباشرة ، قبل ان انهل العلم من الكتب ، فقد امكنني ان اقرر وجود رمزية الاحلام قبل ان يجذب عمل شرنر Scherner انتباهي اليها . لكن في وقت لاحق فحسب امكن لي ايضا ان اقدر وسيلة الاحلام هذه في التعبير حق قدرها ، وهذا تحت تأثير ابحاث ف. شتيكل Stekel الذي جرت تنحيته في خاتمة المطاف عن معسكر التحليل النفسي على الرغم مما اسداه اليه من خدمات جلى . كذلك لم اكتشف الا بعد انقضاء بضع سنوات اخرى الروابط الوثيقة القائمة بين التأويل التحليلي النفسي للاحلام وبين فن تفسير الاحلام الذي كان رائجا للغاية في العصور القديمة . اما الشطر الاهم والمبتكر من نظريتي في الاحلام ، أعني الشطر الذي يربط التحريفات الطارئة في الاحلام بصراع باطني ، وبعبارة اخرى ، الشطر الذي يرى في هذه التحريفات ضربا من النقص في الصراحة الداخلية ، فقد التقيته لاحقا لدى مؤلف غريب عن الطب ، ولكن ليس عن الفلسفة ، لدى المهندس الشهير ج. بوبر Popper الذي نشر ، تحت اسم لنكوس المستعار Lynkeus ، **تخيلات انسان واقعي** في عام ١٨٩٩ .

لقد وجدت في تأويل الاحلام مصدر عزاء وتشجيع في ابان السنوات الاولى من عملي التحليلي ، وقد كانت من أصعب السنوات واشقها على النفس ، اذ كان عليّ فيها ان اجمع بين العيادة والتقنية وعلاج الاعصبة ، وكنت اخشى ، وانا ما انا فيه من عزلة ، وإزاء المشكلات العديدة التي كانت تلاحقني والصعوبات البالغة التعقيد التي كنت اواجهها ، ان اضل طريقي وان افقد ثقتي بنفسي . وكان عليّ في كثير من الاحيان ان انتظر مدة لامتناهية الطول من الزمن حتى يتجلى لدى المريض ما يثبت صحة مسلمتي التي مؤداها ان العصاب لا بد ان يغدو قابلا للفهم بواسطة التحليل ؛ غير ان الاحلام ، التي يمكن اعتبارها مماثلة للاعراض ، كانت تقدم لي بصفة شبه مستديمة ، وفي الاحوال جميعا ، توكيدا لصحة هذه المسلمة .

وانما من معين النجاحات التي وفرها لي تأويل الاحلام استمددت القوة على الانتظار والشجاعة للمثابرة . وقد درجت في العادة على تقدير تفهم الناس السيكولوجي بحسب موقفهم من المشكلات ذات الصلة بالاحلام ، وتأكد لي ، بما يبعث على الرضى والسرور ، أن معظم خصوم التحليل النفسي يتحاشون المجازفة بطرق هذا الميدان او يتصرفون فيه تصرفا شديد الخرق اذا ما عنّ لهم الولوج اليه . وقد قمت بتحليل نفسي بنفسي ، بعد ان تأكدت لي ضرورة ذلك ، وكانت وسيلتي الى ذلك مجموعة من احلامي اتاحت لي ان اقتفي اثر جميع احداث سنيّ طفولتي ؛ وانا لا ازال اعتقد الى اليوم بأن هذا الضرب من التحليل يمكن ان يكون كافيا اذا ما كان الشخص المعني كثير الاحلام ولا يشذ كثيرا عن سواء الناس .

يخيل الي ، بعد ان عرضت لانظار القراء جميع اطوار تاريخ التحليل النفسي هذه ، انني اوضحت ما كنه التحليل النفسي باحسن مما كنت سأفعل فيما لو لجأت الى عرض منهجي له . وبادىء ذي بدء ، لم أتنبه للطبيعة الخاصة لاكتشافاتي . وقد

ضحيت عن عمد بسمعتي الطبية البادئة ؛ ومن دون ان اخشى من تنفير المرضى الذين شرعوا بالتدفق الى عيادتي أصررت على تحري الجبرية الجنسية لأعصبتهم ، الامر الذي اتاح لي ان اجمع كمية كبيرة من الملاحظات والمشاهدات التي وفرت ركيزة نهائية لاقتناعي بالاهمية العملية للعامل الجنسي . ولغير ما غرض في نفس يعقوب رحت أتكلم في جلسات الجمعية التي كانت تضم الاختصاصيين الفييناويين والتي كان يتراسها آنئذ كرافت ــ ابينغ Krafft - Ebing . وكان كل أملي ان القى في اهتمام زملائي بأفكاري وتعاطفهم معها تعويضا عن الاضرار المادية التي كنت أتحملها بطيبة خاطر . وقد تكلمت عن اكتشافاتي بوصفها مساهمات موضوعية في العلم ، وكان معقد رجائي ان يرى اليها الآخرون ايضا بصفتها هذه . لكن الصمت الذي كان يعقب مداخلاتي ، والفراغ الذي راح يضرب اطنابه حولي شيئا فشيئا ، والتلميحات والتعريضات التي طفقت تتناهى الى مسامعي ، كل ذلك جعلني أفهم في النهاية انه لا يمكن للمرء ان يتوقع ان تحظى التصريحات بصدد دور الجنسية في اتيولوجيا الاعراض بنفس الاستقبال الذي تقابل به غيرها من التصريحات . وادركت في خاتمة المطاف انني أمسيت مندرجا مذّاك فصاعدا في عداد اولئك الذين «يعكرون صفو سبات العالم» ، بحسب تعبير هيبل Hebbel ، وانه ليس لي ان أعتمد على الموضوعية والتسامح . لكن بما ان اقتناعي بالصوابية العامة لمعايناتي واستنتاجاتي كان يزداد ترسخا ، وبما انه كانت تتوفر لي في الوقت نفسه ثقة كبيرة بأحكامي الذاتية وشجاعة معنوية كافية ، فان المخرج النهائي للوضع الذي كنت أتخبط فيه ما كان مشكوكا فيه . واستقر عزمي على الاعتقاد بأنني وفقت الى اكتشاف علاقات لها دلالتها البليغة ، وكنت على استعداد لتحمل المصير الذي لا بد ان يعود به عليّ هذا الاكتشاف لحين من الزمن .

وهاكم كيف كنت أتصور هذا المصير : فأنا سأنجح في أرجح

الظن في صمودي بفضل النتائج العلاجية لطريقتي ، لكنني سأبقى مجهولا ــ ما حييت ــ من قبل العلم . وبعد مرور بضعة عقود من السنين على وفاتي سيعيد شخص آخر ، لا محالة ، اكتشاف الاشياء ذاتها ، غير ذات الطابع الراهن في الوقت الحاضر ، وسيتمكن من فرضها بحيث تحظى بالقبول العام ، وسيرفعني الى مقام رائد لم يحالفه التوفيق . وبانتظار ذلك لن يكون لي من هم ، اقتداء بمثال روبنسون ، غير تدبر اقامتي بالقدر المستطاع في جزيرتي المنفردة . وحين أرجع بالفكر الى سنوات العزلة تلك، شاربا الصفح عن فوضى الزمن الحاضر وبلبلته ، يتراءى لي انه كان زمنا بطوليا حلوا : ف «العزلة الرائعة» (١٤) كانت لها مزاياها وما كانت تخلو من سحر وفتنة . فلم يكن عليّ ان اقرا اي كتاب في المسائل المثيرة لاهتمامي ، ولم يكن علي ان أصيخ سمعا لاعتراضات الخصوم غير المطلعين على الامر ، ولم اكن واقعا تحت اي تأثير ، ولم يكن شيء يزحمني . وكنت قد تعلمت كيف الجم الميل الى التأمل المجرد ، وطبقا لنصيحة معلمي شاركو التي لا أنسى ، كنت قد اعتدت على الرجوع مرارا وتكرارا الى المسائل عينها ، الى ان يبزغ منها نور ما تلقائيا . وكان بوسع كتاباتي المنشورة ــ التي ما كنت أفلح في نشرها الا بعد لأي ــ ان تبقى متأخرة عن حالة معرفتي ، بل كان من الممكن ارجاء نشرها بلا محذور ، اذ لم يكن ثمة من وجود لـ «أسبقية» مشكوك فيها ومستوجبة للدفاع عنها . وعلى سبيل المثال ، كان **علم الاحلام** (١٥) جاهزا ، في أقسامه الاساسية ، منذ بداية عام

---

١٤ ــ بالانكليزية في النص . ــم ــ

١٥ ــ علم الاحلام او تاويل الاحلام Traum Deutung : من اشهر كتب فرويد وأضخمها ، انجزه سنة ١٨٩٨ ، وطبعه سنة ١٨٩٩ ، وجعل تاريخ نشره سنة ١٩٠٠ . ــم ــ

١٨٩٦ ، لكني لم اكتبه الا في عام ١٨٩٩ . وكان علاج «دورا» قد انتهى في عام ١٨٩٩ ، وقد حررت معاينتها في الاسبوعين التاليين لنهاية علاجها ، لكنه لم ينشر الا في عام ١٩٠٥ (١٦) . وفي اثناء ذلك كانت الصحافة المتخصصة تهمل عرض كتبي ، واذا ما حدث وفعلت ذلك فانما لتنفض يدها منها بسيماء من التعالي الساخر . وبالمناسبة اشير الى ان زميلا ، مختصا مثلي في الامراض العصبية ، تنازل وخصني في بعض كتاباته بملاحظة مقتضبة ليس فيها من الاطراء لي شيء ، اذ وصف نظرياتي بأنها غريبة ، متطرفة ، بل شاذة . وذات يوم سالني مساعد في العيادة الفييناوية التي كنت القي فيها دروسي نصف السنوية الاذن بحضور محاضراتي . وقد اصاخ السمع بانتباه عظيم ، ولم ينبس ببنت شفة ، لكنه اقترح ، بعد المحاضرة الاخيرة ، ان يرافقني بضع خطوات . وأثناء تلك الجولة اعترف لي بأنه كتب، بموافقة رئيسه ، كتابا موجها ضد نظرياتي ، واضاف القول انه نادم على فعلته هذه بعد ان أتيح له ، من خلال دروسي ، ان يكوّن فكرة أصح عن هذه النظريات . فلو كان عرفها من قبل كما بات يعرفها الان ، لما كتب كتابه . وكان قد سأل الجهاز الاداري في العيادة عما اذا لم يكن من المناسب ، قبل ان ينكب على تحرير كتابه ، ان يقرأ **علم الاحلام** ، لكن جاءه الجواب بأن الامر لا يستأهل هذه المشقة . وقد شبّه بنفسه متانة البنية الداخلية لبنياني النظري، كما بات يعرفه الان، بمتانة الكنيسة الكاثوليكية. ولخلاص روحي ، لا بد لي من الاعتراف هنا بأن هذا التشبيه كان ينطوي على استحسان لبنياني النظري . لكنه ختم كلامه مع ذلك بالقول بأن الاوان قد فات ، وبانه ما عاد في مستطاعه ان يغير شيئا في كتابه ، اذ انجزت طباعته . وهو لم ير على كل حال من

١٦ ــ نبذة من تحليل اصابة هستيرية . ــ م ــ

ضرورة لاحقا ليقر علنا بالتحول الذي طرأ في فكره حيال التحليل النفسي ؛ بل آثر ، في خلاصاته التي كان ينشرها في دورية طبية، ان يرافق تطور التحليل النفسي بتعليقات ساخرة .

من حسن الحظ ان حساسيتي الشخصية كانت قد فقدت الكثير من حدتها في ابان تلك السنوات . بيد ان ظرفا بالغ الخصوصية ، لم يعرفه الكثير من المجدِّدين المعزولين الآخرين ، ساعدني على تحمل حظي العاثر ، دونما مرارة او ضغينة مجاوزة الحد . فالمجدد الذي لم يقدر حق قدره يجشم نفسه بوجه العموم مجهودا كبيرا ليبحث عن اسباب لامبالاة معاصريه به او عدائهم له ، وهو يرى في هذه اللامبالاة وفي هذا العداء تحديا حقيقيا لقناعاته التي يتراءى له انها ترقى الى مستوى اليقين المطلق . والحال انني لم أتجشم مجهودا من هذا القبيل ، اذ لم يشق عليّ ان اجد تفسيرا تحليليا نفسيا صرفا لموقف معاصريّ السلبي من نظرياتي . فقد قلت بيني وبين نفسي : اذا صح ان الوقائع المكبوتة التي اكتشفت وجودها لا يمكن ان تصل الى وعي المريض ، اذ تعارض ذلك مقاومات وجدانية، فلا بد ان يكون صحيحا ايضا ان ثمة مقاومات مماثلة تتظاهر لدى الانسان المعافى كلما شاء احدهم ان يضعه في مواجهة وقائع كان قد خيل له ، لسبب او لآخر ، ان من واجبه ان يطردها من وعيه . وارجح الظن انه سيسعى الى تبرير هذا النفور الوجداني في جوهره بأسباب عقلية . وليس لذلك ان يدهشنا ، ما دمنا نلتقي مجهود التعقيل Rationalisation هذا نفسه لدى الانسان المريض الذي يلجأ الى استخدام الحجج ذاتها على قلة حذاقتها (كان فالستاف (١٧) يقول : لا شيء اكثر شيوعا من الحجج خلا التوت

١٧ ــ فالستاف : تحريف لاسم فاستولف ، وهو قبطان انكليزي (نحو ١٣٧٨ ــ ١٤٥٩) انتصر في معارك فرنوي وأورليان في حرب المئة عام ، واتخذه شكسبير نموذجا لبطله فالستاف في مسرحية **هنري الرابع** . ــ م ــ

البري) . والفارق الوحيد انما يكمن في انه تتوفر لنا ، في حال الانسان المريض ، وسائل ضغط يمكننا معها ان نكشف له عن وجود المقاومات وان نتيح له امكانية تذليلها والتغلب عليها ، بينما تعوزنا هذه الوسائل في حال الانسان المعتبر معافى . هل سيكون في مستطاع هؤلاء الاشخاص ذات يوم ، وعن اي سبيل، ان يجدوا لزاما عليهم اخضاع نظرياتي لامتحان هادىء ، رائق ، موضوعي علميا ؟ كانت هذه ما تزال بالنسبة الي معضلة محفوفة بالغموض ؛ ولقد قلت بيني وبين نفسي ان خير ما افعله هو ان اجعل اتكالي على الزمن ، وان انتظر حل المشكلة بفعل التطور الطبيعي للعقول . فكثيرا ما لوحظ في تاريخ العلوم ان توكيدا من التوكيدات اصطدم من الوهلة الاولى بمعارضة عنيفة لا يلبث في وقت لاحق ان يلقى قبولا ، من دون ان تقوم ادلة جديدة في صالحه .

مهما يكن من امر ، فلن ادهش في أرجح الظن احدا فيما لو ذكرت ان موقف معاصريّ ، في السنوات التي كنت فيها الممثل الوحيد للتحليل النفسي ، ما كان من شأنه ان يوحي الي بكبير احترام لاحكام الانام ، او ان يحثني على التخفيف من صلابتي الفكرية .

- ٢ -

في عام ١٩٠٢ تشكلت حولي مجموعة من أطباء شبان ، كان هدفهم المعلن تعلم التحليل النفسي لتكريس انفسهم له ، ومن ثم العمل على نشره . وكانت مبادرة هذا التجمع تعود الى زميل اختبر في شخصه بالذات المفاعيل الحسنة للمعالجة التحليلية . كنا نجتمع في بعض الاماسي في منزلي ، ونتناقش متقيدين ببعض القواعد ، ونسعى الى تعرف موطىء اقدامنا في مضمار الابحاث الجديد كل الجدة هذا ، والى اثارة اهتمام الآخرين به . وذات يوم زارنا فتى كان قد انهى لتوه دراسته في مدرسة مهنية . وكان يحمل مخطوطة نمّت عن تفهم مدهش للتحليل النفسي . فدعوناه الى متابعة دراسته الثانوية ، ثم الى تسجيل نفسه في الجامعة والى تكريس ذاته للتطبيقات غير الطبية للتحليل النفسي . وهكذا صار لمجموعتنا الصغيرة امين سر مندفع وموثوق ، ولم يلبث اوتو رانك Rank (1) ان اصبح ،

١ - الذي صار مديرا لدار «المنشورات الدولية للتحليل النفسي» ، ومحررا في «المجلة الدولية للتحليل النفسي» ومجلة «ايماغو» منذ تأسيسهما.

بالنسبة الي شخصيا ، مساعدا ومعاونا يصمد في تفانيـــه واخلاصه لكل امتحان .

لم تلبث حلقتنا الصغيرة ان توسعت ، لكن تركيبها تبدل غير مرة في ابان السنوات التالية . على انه يمكنني القول ، اذا اخذنا كل شيء بعين الاعتبار ، انها ما كانت تقل شأنا ، من حيث تنوع المواهب وغنى القابليات ، عن هيئة اعوان اي استاذ سريري . فقد كانت جماعتنا تضم من البداية جميع اولئك الذين سيلعبون فيما بعد ، في تاريخ الحركة التحليلية النفسية ، دورا مهما ، بل لا غبار عليه في اكثر الاحوال . لكن كان من المتعذر وقتئـــذ توقع هذا التطور . وما كان لي الا ان اشعر بالرضى والسرور ، وعندي يقين بأنني فعلت كل ما هو منوط بي لكي اضع في متناول الآخرين كل ما كنت اعرفه وما عرفته انا شخصيا عن طريـــق التجربة . واقعتان اثنتان فقط ما كانتا تبشران بخير ، وقـــد حملتاني في نهاية المطاف على الابتعاد معنويا عن هذه الحلقة . فأنا لم افلح في ان أنشر بين اعضائها ذلك الوفاق الودي الـذي ينبغي ان يقوم بين اناس ينذرون انفسهم لعمل واحد ، قاس وشاق ؛ كما لم افلح في استبعاد مناقشات الاسبقية ، تلـك المناقشات التي تقدم لها شروط العمل المشترك العديد مـــن الذرائع . وكانت الصعوبات التي ينطوي عليها تعليم التحليـــل النفسي وتطبيقه العملي ــ وهي صعوبات جسيمة للغاية وعلـــة لمعظم الاختلافات والخلافات الراهنة ــ قد بدأت مفاعيلها تظهـــر للعيان منذ ذلك الحين في الاجتماعات الخاصة لرابطة التحليل النفسي الصغيرة في فيينا . اما انا فبالنظر الى ان التقنية لـــم تكن قد اكتملت بعد والى ان النظرية كانت قيد التطور ، لم اجرؤ على تعليم اي منهما بحزم كاف ؛ وهذا ما اخطأت فيه ، لانني لو فعلت لكنت وفرت على الآخرين اكثر من خطأ فيأغلب الظن ولكنت تداركت اكثر من حيدان عن الصراط المستقيم . ان المرء ليخالجه

على الدوام شعور عظيم بالرضى كلما راى تلاميذه وقد امتلكوا المقدرة على العمل المستقل وانعتقوا من تبعيتهم لمعلمهم . لكن هذا الاستقلال وهذا الانعتاق لا يكونان خصبين من وجهة النظر العلمية الا اذا ارتبطا ببعض السجايا الشخصية التي غالبا ما ينـــدر وجودها ، ويا للاسف . والحال ان التحليل النفسي يقتضـــي بالتحديد انضباطا طويل الامد وصارما ، كيما يتمكن المرء مـــن السيطرة التامة على نفسه . وتقديرا مني للشجاعة التي كانـوا يبدونها بانكبابهم على هذا العمل المرذول من الآخرين وغير الواعد بكسب مادي في المستقبل ، كنت اميل الى غض النظر عن اشياء كثيرة من جانب اعضاء اجتماعاتنا ، مع انها كانت ستصدمني بقوة فيما لو اختلفت الظروف . وعلى كل ، لم يكن ينتمي الى حلقتنا اطباء فحسب ، بل كذلك اشخاص مثقفون آخرون شاموا فـــي التحليل النفسي شيئا ذا مغزى : كتّاب ، فنانون ، الخ . وكان **علم الاحلام** والكتاب عن **النكتة** (٢) ، الخ ، قد اظهرا ان نظريات التحليل النفسي ليست من طبيعة طبية حصرا ، بل قابلة ايضا التطبيق على الفروع البالغة التنوع للعلوم المعنوية .

وخلافا لكل توقع ، طرأ على الوضع في عام ١٩٠٧ تغـــير مباغت بقدر ما هو شامل . فقد تناهى الى علمنا ان التحليـــل النفسي قد ايقظ ، بلا ضجيج ، اهتمام بعض الاشخاص ، وانه اكتسب اصدقاء ، وان ثمة علماء على استعداد للانتساب اليه . وكانت رسالة من بلولر Bleuler قد أعلمتني من قبل ان ابحاثي تدرس وتستخدم في بورغولزلي . وفي كانون الثانـــي ١٩٠٧ ، قدم د. ايتنغون Eitingon (٣) ، من عيادة زوريخ ،

---

٢ ــ يشير فرويد هنا الى كتابه «النكتة وصلاتها باللاشعور» ، الصـــادر عام ١٩٠٥ . ــم ــ

٣ ــ اسس فيما بعد **العيادة التحليلية النفسية المتعددة الاختصاصات في** برلين .

الى فيينا ، وسرعان ما اعقبت زيارته زيارات اشخاص آخرين كثيرين ، مما شرع الابواب امام تبادل واسع ونشيط للافكار . واخيرا ، وبناء على دعوة من ك.غ. يونغ ، الذي كان آنئذ طبيبا مساعدا في بورغولزلي ، انعقد في سالزبورغ ، في ربيع ١٩٠٨ ، اول اجتماع لاصدقاء التحليل النفسي المقيمين في فيينا وزوريخ وغيرهما . وفي ذلك المؤتمر التحليلي النفسي الاول تقرر تأسيس مجلة ، وشرعت فعلا بالصدور سنة ١٩٠٩ باسم **حولية الابحاث التحليلية النفسية والسيكولوجية المرضية** باشراف بلولر وفرويد، واسندت رئاسة تحريرها الى يونغ . وكان المفروض بهذه النشرية ان تكون بمثابة صلة وصل بين فيينا وزوريخ وان تشجع العمل المشترك للمحللين النفسيين في هاتين المدينتين .

لقد اشدت مرارا وتكرارا بالافضال الكبيرة لمدرسة الطب النفسي في زوريخ ، وعلى الاخص ببلولر ويونغ لمساهمتهما في نشر التحليل النفسي ، وليس في نيتي الرجوع اليوم عن هذه النقطة وان اختلفت الظروف اشد الاختلاف . ومن المؤكد انه ليس بفضل تدخل مدرسة زوريخ وحده شدّ انتباه العالم العلمي الى التحليل النفسي . بل كان التطور طبيعيا في الواقع : فقد كانت مرحلة الكمون قد انتهت وصار التحليل النفسي في كل مكان موضوع اهتمام متزايد باستمرار . لكن يقظة الاهتمام هذه بالتحليل النفسي لم تفض في كل مكان آخر الا الى شجب محموم في اكثر الاحيان ، بينما لم يُسجل سوى التأييد والانتساب له في زوريخ . وفي اي مكان آخر ما كان أنصار التحليل النفسي يشكلون ، كما في زوريخ ، جماعة متلاحمة ، وان ضئيلة التعداد؛ كذلك لم تكن تتوفر في أي مكان آخر عيادة رسمية موضوعة في خدمة التحليل النفسي ، مثلما ما كان اي استاذ سريري في أي مكان آخر ليجرؤ على ادراج النظريات التحليلية النفسية في المنهاج التعليمي للطب النفسي . هكذا شكل الزوريخيون نواة

الفيلق الصغير المكافح في سبيل الاعتراف بالتحليل النفسي . وهم وحدهم الذين سنحت لهم الفرصة للتبحر في الفن الجديد لإغنائه بالابحاث . واكثر أنصاري ومعاونيّ الحاليين جاؤوا الي مرورا بزوريخ ؛ وهذا ينطبق حتى على اولئك الذين كانوا ، من وجهة النظر الجغرافية ، أبعد عن سويسرا منهم عن فيينا . ان فيينا تشغل موقعا منحرفا عن المركز في اوروبا الغربية التي تضم غالبية المراكز الكبرى لحضارتنا ؛ وقد لحق بسمعتها اذى كبير منذ العديد من السنوات لما احاق بها من أحكام مسبقة خطيرة ؛ بينما يتدفق على سويسرا ، حيث الحياة الفكرية في منتهى النشاط ، ممثلو جميع الامم الكبيرة ، وكل بؤرة عدوى تتشكل في هذا البلد لا يمكن الا ان تسهم بأوفر قسط في نشر ما اسماه هوش Hoche ، من مدينة فريبورغ ، بالوباء النفسي .

طبقا لشهادة زميل تابع عن كثب التطور الذي تم في بورغولزلي ، فان الاهتمام فيه بالتحليل النفسي بدأ من وقت مبكر . وقد تضمن بحث ليونغ عن الظاهرات الغيبية ، ظهر عام ١٩٠٢ ، اول احالة الى تأويل الاحلام . وبدءا من ١٩٠٣ ، او ١٩٠٤ ، حسبما يروي شاهدي ، أفلح التحليل النفسي في احتلال المكانة الاولى . وبعد اقامة علاقات شخصية بين زوريخ وفيينا ، تكونت في بورغولزلي في اواسط عام ١٩٠٧ ، على حد ما ذكر لي ، رابطة خاصة كان اعضاؤها يجتمعون دوريا ليناقشوا المسائل المتعلقة بالتحليل النفسي . ولم يكن دور السويسريين ، في الاتحاد الذي انعقد بين مدرسة فيينا ومدرسة زوريخ ، يقتصر على التلقي والاستقبال فحسب . بل كانوا قد نشروا أبحاثا علمية محترمة ، كانت نتائجها ثمينة للغاية بالنسبة الى التحليل النفسي . وكانت لهم المبادرة الى تأويل امتحان التداعي ، الذي

قالت به مدرسة **فونت** (٤) ، باتجاه التحليل النفسي ، وهذا ما اتاح لهم امكانيات تطبيقية لامتوقعة . وبذلك صار بالامكان الحصول على توكيدات اختبارية سريعة للطروحات التحليلية النفسية ، وتقديم عروض برهانية لكل من يريد الالمام بأصول التحليل النفسي ، علما بأن مثل هذه البرهنة كانت تتم في السابق كلاميا فحسب . والحق ان ذلك كان اول جسر يقام بين علم النفس التجريبي والتحليل النفسي .

ان امتحان التداعي يتيح الامكانية ، في اثناء المعالجة التحليلية النفسية ، للقيام بتحليل كيفي مسبق للحالة المرضية ، لكنه لا يغني التقنية بأية مساهمة جوهرية . بل من الممكن انجاز التحاليل بدون اللجوء اليه . وأهم منه كانت المساهمة الاخرى لمدرسة زوريخ ، او بالاحرى لاثنين من زعمائها : بلولر ويونغ . فقد بيَّن الاول وجود مجموعة كاملة من الحالات الطبنفسانية التي لا سبيل الى تفسيرها الا على ضوء سيرورات من نوع السيرورات التي يفسر بها التحليل النفسي الاحلام والعصاب («أواليات فرويد») . واستطاع يونغ من جهته ، بتطبيقه منهج التأويل التحليلي على ظاهرات الخبل المبكر الاكثر شذوذا وغموضا ، ان يبرهن على وجود الروابط التي تربطها بحياة المريض السابقة وباهتماماته الحيوية . وبدءا من ذلك اليوم ما عاد مباحا للاطباء النفسانيين الاستمرار في تجاهل التحليل النفسي . ومن الممكن ان يعد المؤلف الكبير لبلولر عن فصام الشخصية (١٩١١)، وفيه تحظى النظرة التحليلية النفسية بتقدير مماثل لذاك الذي تحظى به الطريقة السريرية ــ المنهجية ، تتويجا للتطور موضوع بحثنا هنا .

---

٤ ــ فلهلم فونت : عالم نفس وفيلسوف الماني (١٨٣٢ ــ ١٩٢٠) ، مؤسس علم النفس التجريبي . ــم ــ

لا يسعني الا اغتنم الفرصة السانحة لانوه بالفارق الذي كان قائما ، منذ ذلك الحين ، بين المدرستين من حيث اتجاه العمل العلمي . فقد كنت نشرت ، في عام ١٨٩٧ ، تحليلا لحالة فصامية ، لكن بما ان هذه الحالة كانت تتسم بطابع ذهاني هذائي Paranoide حاد ، فان شفاءها لا يمكن ان يعد اسنادا للنتائج المحرزة بعد تحليل يونغ لها . بيد ان ما كان يهمني في المقام الاول ليس تأويل الاعراض ، بل أوالية المرض النفسية، وقبل كل شيء التشابه ، بله التطابق المحتمل ، بين هذه الاوالية وبين اوالية الهستيريا ، المعروفة والمثبَّتة . وما كنا نعرف من شيء بعد عن الفروق بين الاواليتين . وكان الهدف الذي وضعته منذ ذلك الحين نصب عينيَّ ارساء الاسس لعلاج للاعصبة يرتكز الى تصور مؤداه ان جميع الظاهرات العصابية والذهانية قابلة التفسير بمصائر الليبيدو غير السوية وبانحرافاته عن اتجاهه الطبيعي. وكانت وجهة النظر هذه غريبة عن العلماء السويسريين. وعلى حد علمي ، ما يزال بلولر الى اليوم نصيرا متحمسا للجبرية العضوية لجميع اشكال الخبل المبكر ، وقد اعلن يونغ ــ الذي كان كتابه حول هذا الموضوع قد صدر عام ١٩٠٧ ــ في مؤتمر سالزبورغ عام ١٩٠٨ انه يؤيد نظرية الجبرية السمية لهذا المرض ، وهذه النظرية ان كانت لا تنفي النظرية التي عمادها الليبيدو فانها تستأهل مع ذلك الاولوية في رأي يونغ . وقد تعثر لاحقا (١٩١٢) عند النقطة عينها ، فاستنجد على نحو لا يخلو من غلو وإسراف بالمواد التي كان قد تأبى كل التأبي آنفا عن استخدامها .

كان للمدرسة السويسرية مساهمة ثالثة ، ولعله ينبغي ان ينسب الفضل الوحيد فيها الى يونغ ، وان كانت لا تتميز بتلك الاهمية التي يعزوها اليها الاشخاص الغرباء عن التحليل النفسي . اعني بها نظرية العقد كما تتجلى في **دراسات في**

تشخيص التداعي (٥) (١٩٠٦ ــ ١٩١٠) . فهي لا تشكل نظرية سيكولوجية مستقلة ولا تحتل مكانا لها بصورة طبيعية ومنطقية في مجمل النظريات التحليلية النفسية . وبالمقابل ، فان كلمة «عقدة» ــ وهي مصطلح مناسب ولا غنى عنه في كثير من الاحيان لوصف مجمل الاوضاع النفسية ــ قد اكتسبت حق المواطنة في التحليل النفسي . ومن العسير علينا ان نجد بين سائر المصطلحات والتسميات المبتدعة لتلبية حاجات التحليل النفسي مصطلحا واحدا يتمتع بمثل تلك الشعبية وجرى استخدامه بمثل ذلك الاسراف ، وان لحق من جراء ذلك ضرر كبير بوضوح المصطلحات ودقة المفاهيم . فكثيرا ما يدور الكلام في الاوساط التحليلية النفسية عن «عودة العقد» ، مع ان المقصود في الواقع «عودة الميول» او «الذكريات المقموعة» ؛ كما جرت العادة على القول : «انني أشعر ازاءه بعقدة» ؛ مع ان الاصح القول : «أشعر ازاءه بمقاومة» .

بدءا من عام ١٩٠٧ ، اي في السنوات التالية لاقامة علاقات دائمة بين فيينا وزوريخ ، عرف التحليل النفسي تلك الانطلاقة المدهشة التي ما نزال نعيش الى اليوم تحت تأثيرها ؛ انطلاقة يقوم الدليل عليها في كثرة التآليف عن التحليل النفسي ، وفي تزايد عدد الاطباء الراغبين في تعلم أصول التحليل النفسي او ممارسته ، وكذلك في تواتر الحملات عليه في مؤتمرات الجمعيات العلمية واجتماعاتها . وقد ذاع أمر التحليل النفسي حتى في انأى الامصار ، موقظا الاطباء النفسانيين من سباتهم وجاذبا اليه انتباه المثقفين من غير اهل الاختصاص وممثلي فروع اخرى من العلم . وقد كتب هافلوك إيليس Havelok Ellis ، الذي

٥ ــ كتاب لكارل غوستاف يونغ اشاد به فرويد مرارا .

تتبع تطوره بتعاطف لكن من غير ان يعلن مناصرته له ، كتب في مقال له سنة ١٩١١ : «ان لمذهب فرويد في التحليل النفسي انصارا اليوم ، وهو قيد الممارسة لا في النمسا وسويسرا فحسب ، بل كذلك في الولايات المتحدة وانكلترا والهند وكندا ، وكذلك في اوستراليا في ارجح الظن» (٦) . وجهر طبيب تشيلي (من اصل الماني على الارجح) في مؤتمر بيونس آيرس الدولي (١٩١٠) بتأييده لوجود الجنسية الطفلية ، واثنى على النتائج التي تحرزها المعالجة التحليلية النفسية للاعراض الوسواسية (٧) . وابلغني اختصاصي انكليزي في الامراض العصبية ، يقيم في الهند الوسطى (بركلي هيل) ، بوساطة زميل شهير كان يقصد اوروبا ، ان الاعصبة لدى الهنود المسلمين ، الذين يطبق التحليل عليهم ، ترتبط اتيولوجيا بنفس الاسباب التي ترتبط بها لدى المرضى الاوروبيين .

ودخل التحليل النفسي الى اميركا الشمالية تحت رعاية كريمة حقا . ففي خريف ١٩٠٩ دعانا السيد ستانلي هال Hall ، رئيس جامعة كلارك ، الى ورسستر (قرب بوسطن) ، انا ويونغ ، بمناسبة الذكرى العشرين لتأسيس هذه الجامعة ، الى القاء سلسلة من المحاضرات باللغة الالمانية . وقد تأكد لنا بالمشاهدة ، وعلى دهش عظيم منا ، ان اعضاء هذه الجامعة الفلسفية ــ التربوية الصغيرة لكن المحترمة ، اشخاص متحررون من الاحكام المسبقة ، مطلعون على الابحاث التحليلية النفسية

٦ ــ هافلوك ايليس : «مذاهب مدرسة فرويد» The Doctrines of The Freud School

7 — G. Greve, Sobre Psicologia Y Psicoterapia De Ciertos Estados Angustiosos. انظر **المجلة المركزية للتحليل النفسي** ، المجلد ١ ، ص ٥٩٤ .

التي اتخذوها مادة لتثقيف تلامذتهم بها في دروسهم . والحق انه في اميركا المتحشمة ، البادية الحياء تلك ، كان يمكن للدوائر الاكاديمية مع ذلك ان تتكلم بحرية وان تبحث في ما يُعد مستهجنا في الحياة الجارية . والمحاضرات الخمس التي ارتجلتها في ورسستر قد نشرت فيما بعد ، بترجمتها الانكليزية ، في **المجلـة الاميركية لعلم النفس** American Journal of Psychology ، وبعيد ذلك بنصها الالماني تحت عنوان Ueber Psychoanalyse (٨) . اما محاضرات يونغ فقد درست التداعيات من وجهة نظر التشخيص ، وكذلك **صراعات النفس لدى الطفل** . وقد منحنا كلانا لقب LL.D الفخري (دكتور في القانونين) . وفي ذلك الاسبوع الاحتفالي كان التحليل النفسي ممثلا في ورسستر ، بالاضافة الى يونغ وإلي ، بفيرنزي (٩) الذي حرص على مرافقتي في سفرتي ، وبارنست جونز الذي كان آنئذ استاذا في جامعة تورونتو (كندا) ، وحاليا في لندن ، وب. أ. بريل الذي كان قد شرع بممارسة التحليل النفسي في نيويورك .

لقد عقدنا في ورسستر صلات ـ ارتدت بالنسبة الى التحليل النفسي اهمية كبرى ـ مع السيد جيمس ج. بوتنام ، استاذ علم الامراض العصبية في جامعة هارفارد . وكان هذا قد جاهر قبل بضع سنوات بمعارضته للتحليل النفسي ، لكنه غيّر رأيه فيه على حين غرة وطفق يعرضه ، بروح ودية ، على مواطنيه وزملائه ، في احاديث ثرة المضمون بقدر ما هي جميلة الشكل .

٨ ـ راجع **خمسة دروس في التحليل النفسي** ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٧٩ .

٩ ـ د. ساندور فيرنزي : طبيب مجري ، تلميذ وصديق لفرويد ، مؤلف **تالاسا** و **الذكر والمؤنث** (١٨٧٣ ـ ١٩٣٣) . ـ م ـ

وما كان للاحترام الذي يتمتع به في اميركا ، لما عرف عنه من سمو في الاخلاق ومن حب متجرد وشجاع للحقيقة ، الا ان يعود بالفائدة على التحليل النفسي ، اذ وفر له درعا تقيه شر حملات التشهير التي كان من المحتم ان تنال عاجلا من سمعته . غير ان السيد بوتنام ارتأى ان من واجبه ، صدوعا منه للمطالب الاخلاقية والفلسفية لطبيعته الكريمة ، ان يسأل التحليل النفسي اكثر مما يمكن ان يعطيه ، وابتغى ان يضعه في خدمة تصور اخلاقي ـ فلسفي معين للعالم . على انه يبقى المدافع والسند الرئيسي للحركة التحليلية النفسية في بلاده (١٠) .

وليس لنا ، مهما افضنا ، ان نحصر كل ما تدين به هذه الحركة لجونز وبريل . فتعريفا بها وتسهيلا لذيوعها وانتشارها عكفا في كتاباتهما ، بحماسة لا تعرف الكلل ، على تنوير ابناء وطنهما بصدد الوقائع الاساسية للحياة اليومية والاحلام والاعصبة . وقد تميز بريل ، من هذه الزاوية ، بنشاطه الطبي وبترجمته لاعمالي ، بينما استهدف جونز الهدف عينه من خلال محاضراته العظيمة الفائدة ومداخلاته الكفاحية في المناقشات التي كانت تنشب في المؤتمرات حول موضوع التحليل النفسي (١١) .

10 — S.J.J. Putnam, Adresses on Psychoanalysis, internat. Psycho - Analyt. Library, Ni, 1921.

١١ ـ بريل :
Psychoanalysis, its Theories And Practical Applications
(التحليل النفسي : نظرياته وتطبيقاته العملية) ، ١٩١٢ ؛ و إ. جونز : Papers on Psychoanalysis (مقالات في التحليل النفسي) ، ١٩١٥ . وقد صدرت طبعة ثانية لاول هذين المؤلفين سنة ١٩١٤ ؛ اما السيد جونز فقد نشر في عام ١٩١٨ طبعة ثانية (مزيدة جدا . من «مقالاته») واعقبها سنة ١٩٢٣ بثالثة .

ان غياب التقاليد العلمية العريقة وعدم تزمت السلطات الرسمية كان من شانهما تشجيع الحركة لصالح التحليل النفسي في اميركا ، بعد ان أعطاها ستانلي هال زخمها الاول . وقد لوحظت في تلك البلاد واقعة خاصة مميزة تجلت في ان الاساتذة ومدراء المصحات العقلية ابدوا تلهفا الى تجريب التحليل النفسي يعادل ذاك الذي ابداه النطاسيون العاديون . بيد ان هذه الواقعة هي بذاتها التي تبين لنا ان الكفاح في سبيل التحليل النفسي ما كان يمكن ان يتمخض عن قرار حاسم ألا في الاقطار التي اصطدم فيها بأضرى مقاومة ، اي في البلدان القديمة الحضارة .

ان فرنسا ، بين سائر البلدان الاوروبية ، هي التي ابدت حتى الان عن اعتى مقاومة للتحليل النفسي ، بالرغم من ان الزوريخي ا. ميدر Maeder نشر ابحاثا ثاقبة قمينة بأن تفتح للقراء الفرنسيين المدخل الى النظريات التحليلية النفسية . وقد جاءت اولى تظاهرات التعاطف من الاقاليم الفرنسية . وكان موريشو ــ بوشان Morichau - Beauchant (من بواتييه) اول من انتسب علنا وجهارا الى التحليل النفسي . وفي وقت لاحق (١٩١٣) حاول السيدان ريجيس Régis وهينار Hesnard (من بوردو) ، من خلال عرض افتقر في كثير من المواضع الى الوضوح ووجه رأس هجومه الى الرمزية ، ان يبددا الاحكام المسبقة لابناء وطنهما والمناهضة للنظرية الجديدة . وفي باريس بالذات ، يبدو انه لا يزال يسود راي شائع ، عبر عنه أفصح تعبير السيد جانيه Janet (١٢) في مؤتمر لندن (١٩١٣) ، ومؤداه ان كل الاشياء الجيدة التي ينطوي عليها التحليل النفسي انما هي نسخة معدلة عن افكار جانيه ، على اعتبار ان كل ما لا يتفق مع

١٢ ــ بيير جانيه : من رواد علم النفس التجريبي في فرنسا (١٨٥٩ ــ ١٩٤٧ م) .

هذه الافكار انما هو رديء . وكان جانيه قد اضطر ، في اثناء المؤتمر بالذات ، الى الرضوخ ازاء تصحيحات جونز الذي اظهر له انه غير متبحر تبحرا كافيا في المسألة . بيد اننا اذ نرد مزاعمه نجدنا ملزمين بالاقرار بما اداه من مساهمات جدية في مضمار علم نفس الاعصبة .

في ايطاليا ، توقفت الحركة دفعة واحدة ، بعد بدايات بدت حافلة بالوعود . وفي هولندا وجد التحليل النفسي منفذا له في زمن مبكر بفضل علاقات شخصية : اذ قام فان امدن Emden وفان اوفويزن Ophuijsen وفان رنترغم Rentergem (Freud En Zijn School) بنشاط نظري وعملي مرموق في هذا المجال (١٣) . اما في انكلترا فلم يستيقظ اهتمام الدوائر العلمية بالتحليل النفسي الا رويدا رويدا ، بيد ان بعض الدلائل تبيح لنا ان نأمل ان يصل فيها التحليل النفسي الى درجة متقدمة جدا من التطور لما عرف عن الانكليز من حس عملي ومن حب مضطرم للعدالة .

في السويد تخلى ب. بيير Bjerre ، خليفة فيترستراند Wetterstrand العلمي ، مؤقتا على الاقل ، عن الايحاء التنويمي لصالح المعالجة التحليلية النفسية . واقر ر. فوغت Vogt ، (من كريستيانا) في كتابه Psykiatriens grundtraek الصادر سنة ١٩٠٧ ، بفضل التحليل النفسي ، بحيث يمكن

١٣ ــ جاء اول اعتراف رسمي بتأويل الاحلام والتحليل النفسي في اوروبا على لسان الطبيب النفساني بلجرسما Jelgersma ، رئيس جامعة لايدن، في خطابه الافتتاحي في ٩ شباط ١٩١٤ Unbewusstes Geistes Leben, «Beihefte Der Internat. Zeitschr. F. Pschoanal», NI . (الحياة العقلية اللاواعية » في من دفاتر المجلة الدولية للتحليل النفسي) .

القول ان اول مبحث في الطب النفسي حمل التحليل النفسي على محمل الجد قد ظهر باللغة النرويجية . وفي روسيا ، لم يطل الوقت بالتحليل النفسي كي ينتزع الاعتراف به ويعرف رواجا واسعا : فجميع مؤلفاتي تقريبا ، وكذلك العديد من مؤلفات تلاميذي ، قد ترجمت الى الروسية . لكن هذا لا يعني ان الروس قد افلحوا في الوصول الى فهم معمق لنظرياتي . فمساهمات الاطباء الروس في التحليل النفسي ما يزال في الامكان اعتبارها غير ذات شأن . وحدها مدينة اوديسا تملك في شخص السيد وولف Wulff محللا نفسيا كفؤا . وكان ادخال التحليل النفسي الى العلم والادب البولونيين من صنيع ل. جيكلز Jekels في المقام الاول . أما هنغاريا ، القريبة غاية القرب من النمسا جغرافياً والبعيدة عنها غاية البعد مع ذلك علميا، فلم تقدم بعد للتحليل النفسي سوى معاون واحد ؛ لكن هذا المعاون يدعى س. فيرنزي ويعدل وحده جمعية بكاملها (١٥) .

---

١٥ – ليس في نيتي ان أستكمل هذا الوصف ، الذي وضعت معالمه الاولية سنة ١٩١٤ ، وصولا الى اليوم (Up To Date) . بل سأضيف فقط بعض ملاحظات مقتضبة بغية التعريف بالتغيرات الطارئة على هذه الصورة في فترة التوقف المتمثلة بالحرب العالمية . ففي المانيا تسربت النظريات التحليلية شيئا فشيئا الى الطب النفسي السريري ، وان لم يعترف احد بذلك ؛ كما أفلحت الترجمات الفرنسية لمؤلفاتي ، التي صدرت مؤخرا ، في ايقاظ اهتمام متوقد بالتحليل النفسي ، اكثر توقدا في الاوساط الادبية منه في الاوساط العلمية . وفي ايطاليا اشتهر السيد ليفي بيانشيني (نوشيرا العليا) وادواردو فايس (تريستا) كمترجمين للتآليف التحليلية النفسية وكنصيرين للتحليل النفسي (Biblioteca Psicoanalitica Italiana).

وتشهد طبعة لاعمالي الكاملة في مدريد (بترجمة اوبيز بالتروز) على الاهتمام الذي تبديه بلدان اللغة الاسبانية بالتحليل النفسي (الاستاذ ه. دلغادو في ليما) . اما فيما يتعلق بانكلترا فان النبوءة التي افصحت عنها اعلاه تبدو =

فيما يتعلق بألمانيا ، يمكن القول ان التحليل النفسي يشكل فيها مركز المناقشات العلمية ويقابل من جانب الاطباء وغير اهل الاختصاص في آن معا بحملات الشجب والاستهجان اللامتحفظة التي ، بدلا من ان تهدأ ، تعود فتستعر بين الحين والآخر بعنف متزايد . وما من مؤسسة رسمية فيها مفتوحة لتعليم التحليل النفسي او لمزاولته ، وقليلون هم الاطباء الذين يمارسونه بنجاح . ومؤسسات نظير مؤسسة Binswanger في كروزلنجن (في الاراضي السويسرية) ومؤسسة Marcinowski في هولشتاين، هي وحدها التي فتحت ابوابها للتحليل النفسي . ويتولى الدفاع عن التحليل النفسي في برلين ك. ابراهام الذي هو من أبرز ممثليه والذي كان فيما مضى مساعدا لبلولر . وقد يستغرب المرء ان يستمر هذا الوضع على ما هو عليه دونما تغيير منذ سنوات عديدة، اذا كان لا يعلم ان الصورة التي رسمناها لا تعبر الا عن المظهر الخارجي للاشياء . ويخطىء هذا المرء فيما لو بالغ في اهمية الموقف السلبي لممثلي العلم الرسميين ولمدراء المؤسسات، وكذلك لاولئك الذين يؤلفون حاشيتهم . فمن الطبيعي ان يتكلم

= وكأنها تتحقق شيئا فشيئا ، وقد انشىء مركز للثقافة التحليلية النفسية في كالكوتا (الهند البريطانية) . وفي اميركا الشمالية يدرس التحليل النفسي بجد وعمق يتجاوزان من بعيد شعبيته . وفي روسيا تواصل العمل التحليلي النفسي بنشاط ، في عدد كبير من المراكز ، منذ نهاية الثورة . وفي بولونيا تصدر في الوقت الراهن Polska Biblioteka Psychoanalytyczna وأسست في هنغاريا مدرسة زاهرة للتحليل النفسي على يد فيرنزي . (انظر (Festchrift Zum 50, Geberstag Von Dr S. Ferenczi).

«الكتاب التذكاري للذكرى الخمسين لولادة د. س. فيرنزي») . والبلدان الاسكندنافية هي التي تبدي اليوم اكبر التحفظ حيال التحليل النفسي (حاشية أضيفت سنة ١٩٢٣) .

الخصوم بعالي عقائرهم ، بينما يلزم الانصار غير المرتعدي الفرائص رهبة جانب الهدوء . وقد اضطر عدد من هؤلاء الاخيرين ، ممـا كانت مساهماتهم الاولى في التحليل حافلة بالوعود ، الـى الانسحاب من الحركة تحت ضغط الظروف . بيد ان هذه الحركة تابعت شق طريقها في صمت ، مجندة بين الاطباء النفسانيين وغير اهل الاختصاص على حد سواء اعدادا متجددة من المنتسبين ؛ وقد جذبت الى المنشورات التحليلية النفسية اعدادا متزايدة باستمرار من القراء ، فاضطرت الخصوم بالتالي الى مضاعفة وسائل هجومهم وتعزيزها . وكثيرا ما سنحت لي الفرصة في ابان الاعوام الاخيرة لآخذ علما ، وانا اطالع التقارير عن بعض المؤتمرات او عن جلسات بعض الجمعيات العلمية او عن بعض المنشورات التحليلية النفسية ، بأن التحليل النفسي قد لفظ انفاسه الاخيرة ودحض بصورة نهائية . وبوسعي ان اقتدي ، ردا على مثل هذه الاعلانات ، بمثال مارك توين عندما قرأ في احدى الصحف نبأ موته فوجه الى مديرها برقية يعلمه فيها ان «نبأ وفاتي مبالغ فيه» . فبعد كل اعلان من اعلانات الوفاة تلك ، كان التحليل النفسي يدلل على حيوية اعظم من اي وقت سبق ، وعلى غنى اكبر بالانصار والمعاونين ، ويجهز نفسه بمزيد من وسائل التعبير . والحق ان الاعلان عن موت احدهم افضل في كثير من الاحوال من مقابلته بصمت الاموات .

بالتوازي مع توسع التحليل النفسي وانتشاره هذا في المكان ، كانت وجهات نظره تطبق على علوم اخرى ، بفضل دراسة ضروب العصاب والذهان . ولن اتوقف عند هذا المظهر من مظاهر تطور علمنا : فهناك حول هذا الموضوع بحث ممتاز لرانك وساكس (ظهر في سلسلة grenzfragen للونشتاين Lowenstein) يتضمن عرضا مفصلا لهذه المساهمات الجديدة للعمل التحليلي . بيد انه يجدر بنا القول اننا لا نملك بعد ، في

هذا المضمار ، سوى بدايات ومسودات ، بل في اكثر الاحيان مجرد مشاريع . واولئك الذين اعطي لهم ان يكونوا من العادلين في احكامهم لن يروا في هذا التقييم اي مأخذ . فعديدة هي المشكلات ، لكنه ضئيل للغاية عدد العاملين المستعدين لمواجهتها، ناهيك عن ان اكثرهم مضطر الى تعاطي اشغال اخرى ، اشغاله الرئيسية ، ولا يتصدى للمشكلات التي تخرج عن نطاق اختصاصه الا بصفته من الهواة . وبالاصل ، ان هؤلاء العاملين الآتين الى التحليل النفسي لا يتقصدون اخفاء كونهم من الهواة ، اذ ان مطمحهم الوحيد دل الاختصاصيين على الطريق وتعيين مكانهم لهم وايصاؤهم باستخدام تقنيات التحليل النفسي ومسلماته ، يوم يعن لهم ان ينكبوا على العمل . وان تكن النتائج المحرزة حتى اليوم ليست ، بالرغم من كل شيء ، مما يستهان به ، فمرد ذلك ، من جهة اولى ، الى خصب المنهج التحليلي النفسي ، ومن الجهة الثانية ، الى وجود عدد من العلماء الذين نذروا انفسهم من الان ، ومن دون ان يكونوا في عداد الاطباء ، لتطبيقات التحليل النفسي على العلوم الانسانية .

وليس من العسير تخمين الامر : فاكثر هذه التطبيقات يرتبط بأعمالي التحليلية الاولى . فقد كشف الفحص التحليلي للعصابيين وتحليل الاعراض العصابية للافراد الاسوياء عن وجود شروط سيكولوجية لا ينحصر مدلولها بالمضمار الذي اكتشفت فيه . هكذا ازاح لنا التحليل النفسي ، في معرض تفسيره للظاهرات المرضية ، النقاب عن الروابط التي تربط هذه الظاهرات بالحياة النفسية السوية ، وكذلك عن الصلات القائمة بين الطب النفسي وسائر العلوم المعنية بقدر او بآخر بدراسة النشاط النفسي . على هذا المنوال قدمت بعض الاحلام النمطية ، مثلا ، تفسيرا لبعض الاساطير والحكايا . وبسلوكهما هذا الطريق ، كان ركلن Ricklin وابراهام سباقين الى دراسة الاساطير ، هذه الدراسة التي توجها رانك بأبحاثه عن الميتولوجيا ، الملبية على اتم وجه

لجميع مقتضيات هذا الفرع العلمي الخاص . ومع تعميق دراسة رمزية الاحلام برزت مشكلات ذات صلة بالميتولوجيا والفولكلور (جونز ، ستورفر Storfer) والتصورات الدينية . وانـي لأذكر الانطباع العميق الذي ساور اعضاء مؤتمر للتحليل النفسي وهم يستمعون الى تلميذ ليونغ يسلط الضوء على التشابهات القائمة بين الانشاءات الخيالية للفصاميين وبين اساطير نشأة الكون لدى الشعوب والازمنة البدائية . وقد وجدت المواد التي قدمتها الميتولوجيا اعادة بناء مثيرة للاهتمام ، وان اكثر قابلية للنقاش ، في كتابات يونغ الرامية الى اقامة صلة بين التظاهرات العصابية من جهة اولى ، وبين ابداعات الخيال في المضمارين الديني والميتولوجي من جهة ثانية .

وأفضى استكشاف الاحلام ، عن طريق آخر ، الى تحليل الابداعات الشعرية اولا ، ثم الى تحليل الشعراء والفنانين انفسهم . وكانت المعاينة الاولى أن الاحلام التي يتخيلها الشعراء تسلك في كثير من الاحيان ، ازاء التحليل ، مسلكا مماثلا للاحلام الحقيقية **(غراديفا)** (١٦) . وأفسح تصور النشاط النفسي اللاواعي في المجال لتكوين فكرة اولى عن طبيعة الابداع الشعري . وفتحت الدوافع الغريزية ، التي اضطررنا الى الاعتراف بدورها في تشكيل الاعراض العصابية ، المنافذ الى ينابيع الخلق الشعري ؛ وكانت المسائل التي انطرحت عندئذ هي معرفة رد فعل الفنان على هذه الدوافع الغريزية وما الثوب الذي يلبسه لردود فعله (انظر رانـك : Der Kunstler (١٧) ؛ وتحاليل سادجر Sadger

١٦ – غراديفا : رواية قصيرة للكاتب الالماني ينسن ، حللها فرويد في كتابه **الهذيان والاحلام في الفن** (دار الطليعة ، بيروت ١٩٧٨) . – م –

١٧ – **الفنان** . – م –

ورايك Reik وغيرهما للشعراء ؛ وكتيّبي عن ذكرى من طفولة ليوناردو دافنشي (١٨) ؛ وتحليل ابراهام لسيغانتيني (١٩) . وبالنظر الى ان معظم المحللين يهتمون بمسائل ذات صفة عامة ، فقد أسهموا بأبحاثهم في حل تلك المشكلات التي هي ، من بين سائر المشكلات التي تصلح لتطبيقات التحليل، أدعاها الى الاغراء. وغني عن البيان انه كان لا بد ، في هذا المضمار ايضا ، من التصدي لمعارضة اولئك الذين لم يطلعوا على التحليل النفسي ، ومن مواجهة نفس أشكال سوء الفهم وحملات الاستهجان المسعورة التي قوبل بها التحليل النفسي في مضماره الخاص بحصر المعنى . ولقد كان يسع المرء ، بالفعل ، أن يتوقع أن يتعرض التحليل النفسي ، حيثما حاول الدلوف ، لهجمات اصحاب الشأن والقيّمين على الامر . لكن لا بد من القول ، على كل حال ، ان المحاولات الاقتحامية للتحليل النفسي لم توقظ بعد في كل مكان اهتماما متماثلا ، وان ثمة صراعات أخرى تنتظره مستقبلا . ومن بين التطبيقات العلمية الصارمة للمنهج التحليلي على النقد الادبي يجدر بنا ان نخص بالذكر مؤلف رانك الاساسي عن حب المحارم ، وهو مؤلف ينتظره بكل تأكيد استقبال لن يكون بحال من الاحوال وديا . اما تطبيقات التحليل النفسي على اللغة والتاريخ فما تزال ضئيلة التعداد . وقد كنت اول من حاول ، في سنة ١٩١٠ ، التطرق الى المشكلات المرتبطة بعلم النفس

١٨ – نشرت الترجمة العربية لكتاب فرويد : **ذكرى من طفولة ليوناردو دافنشي** ، بالاضافة الى دراسته عن دستويفسكي ، في كتاب واحد بعنوان **التحليل النفسي والفن** ، ترجمة سمير كرم ، دار الطليعة ، بيروت (الطبعة الاولى ، نيسان ١٩٧٥) . – م –

١٩ – جيوفاني سيغانتيني : رسام ايطالي (١٨٥٨ – ١٨٩٩) ، رسم مشاهد جبلية بأسلوب تقسيمي . – م –

الديني، من خلال التشابه الذي اثبت' وجوده بين الطقوس الدينية وطقوس العصابيين . وقد حاول د. بفستـــــر Pfister ، وهو راع في زوريخ ، في كتابه عن ورع كونت زنزندورف (٢٠) (وفي تآليف اخرى) ، ان يربط الهواجس الدينية بالايروسيـــة المنحرفة ؛ ونلاحظ في آخر ابحاث مدرسة زوريخ مجهودا يرمي، من قبيل المعارضة المقصودة ، الى اقحام تصورات دينية علـــى التحليل .

في الفصول الاربعة التي يتألف منها كتابي **الطوطم والمحرّم** ، حاولت ان اطبق المنهج التحليلي على مشكلات ذات صلة بعلــم نفس الشعوب ، تعيدنا في الزمن الى اصول اهم مؤسســـات حضارتنا : التنظيم السياسي والاخلاق والدين ، وكذلك تحظير حب المحارم وتوبيخ الضمير . فالى اي حد ستقاوم الفرضيات التي خيل الي ان بمقدوري صياغتها بصدد هذا الموضوع هجمات النقد ؟ هذا ما يتعذر التكهن به في الوقت الحاضر .

يمثل كتابي عن **النكتة** اول محاولة لتطبيق المنهج التحليلي على مسائل من علم الجمال . وهذا ، في الحق ، مضمار لم يتم سبره بعد ، وهو يعد عاملي الغد باكتشافات ثرة . ونحن نفتقر الى علماء متخصصين في الفروع المناظرة لهذه المسائل ، وانما طلباً لمعونتهم اسس هانس ساكس Sachs مجلة **إيماغـــو** Imago التي يديرها منذ عام ١٩١٢ بالتعاون مع رانك . وقد دشـــن هتشمان Hitschmann وفون فنترشتايـــن Winterstein في هذه المجلة التفسير التحليلي النفسي للمذاهب والشخصيات الفلسفية ، من خلال ابحاث نتمنى لو قيض لها الاستمرار والمزيد

---

٢٠ – نيقولاوس لودفيغ فون زنزندورف : نبيل ومترهب الماني ، مجدد رهبانية الاخوة المورافيين (١٧٠٠ – ١٧٦٠) . –م–

من التبحر .

ان الاستنتاجات الثورية التي تراءى للتحليل النفسي انـــه مستطيع صياغتها بصدد حياة الطفل النفسية ، والدور الـــذي تلعبه فيها الحفزات الجنسية (فون هوغ – هلموث V. Hug - Hellmuth) ، والمصير القيض للعناصر المكونـــة للجنسيـة ، وهي العناصر التي لا تعود صالحة للاستعمال بهدف الانجاب ، ان هذه الاستنتاجات الثورية قد جذبت اليها بالضرورة انتباه علماء التربية وشجعتهم على محاولة تطبيق وجهات النظر التحليليـــة النفسية على التربية . ولقد كان من فضل السيد الراعي بفستر انه قام بهذه المحاولة بحماسة صادقة ، وانه اراد ان يشاطـــره حماسته هذه جميع المربين ، وجميع اولئك الذين يتحملـــون مسؤولية النفـــوس (Die Psychoanalytische Methode, 1913) (٢١) . ولقد أفلح على كل حال في كسب تأييد عدد كبير من المربين السويسريين . وقد آثر بعض زملائه ان يبقوا ، بداعي الحذر ، بعيدا عن الاضواء، وان صرحوا بمشاطرتهم آراءه. ويبدو انبعض المحللين الفييناويين هجروا التحليل النفسي لصالح نوع من علم التربية الطبية (آدلر Adler وفورتمولر Fortmuller (Heilen und Bilden, 1913) (٢٢) .

لقد حاولت ، في هذا التعداد غير الكامل ، ان أبرز للعيان الوشائج العديدة القائمة بين التحليل النفسي الطبي وبين فروع اخرى من العلم . والحق ان ثمة عملا ينتظر جيلا بكامله مـــن الباحثين ، واني لعلى يقين بأن هذا العمل لن يكون في المستطاع التصدي له وانجازه على الوجه الواجب الا متى ما انهـــارت

---

٢١ – **المنهج التحليلي النفسي** . –م–
٢٢ – **الشفاء والتأهيل** . –م–

المقاومات التي يصطدم بها التحليل النفسي في مسقط راسه بالذات (٢٢) .

لن يكون عملنا الا عقيما وفائتا أوانه فيما او عرضنا هنا تاريخ هذه المقاومات . وليس في هذا التاريخ ما يدعو الى التباهي بالنسبة الى ممثلي العلم في زمننا الحاضر . بيد انني أحرص على ان أضيف القول انه لم يخطر لي ببال ان أعدّ خصوم التحليل النفسي اناسا جديرين بالازدراء ، جميعهم بلا تمييز ، لمجرد أنهم خصوم ، ما خلا بعض الدجالين الساقطين والمصطادين في المياه العكرة ، ممن لا يخلو منهم كلا المعسكرين . ولقد كنت قادرا على تفسير موقف هؤلاء الخصوم ، وكانت التجربة قد علمتني فضلا عن ذلك ان التحليل النفسي يصعّد الى السطح اسوأ ما في الانسان . لكني كنت قد اتخذت قرارا بعدم الرد، وقد استخدمت كل نفوذي لردع الآخرين عن الانخراط في حرب كلامية . وكانت فائدة المناقشات العامة او على صفحات الصحف تبدو مشكوكا فيها للغاية ، بالنظر الى الشروط الخاصة التي يدور فيها الصراع تأييدا للتحليل النفسي او معاداة له ؛ وكنا على يقين دوما بأن الغالبية في المؤتمرات واجتماعات الجمعيات ستقف ضدنا ، وما كنت أسرف في وضع ثقتي في نبل مشاعر خصومي وحبهم للعدل . وتدل المشاهدة المباشرة على ندرة الاشخاص القادرين على التزام جانب التهذيب او الموضوعية على الاقل في أثناء النقاش العلمي ، وما كان لي ان أفكر بهذا النوع من المشاحنات من دون ان يتنابني الاشمئزاز . هذا الموقف الذي خيل الي انه من واجبي ان اقفه قد أسيء تفسيره على الارجح ؛ فقد تصور المتصورون انني

---

٢٢ ـ انظر ايضا مقاليّ المنشورين في Scientia (المجلد الرابع عشر ، ١٩١٣) : حول الاهتمام بالتحليل النفسي .

طيب القلب الى حد الضعف او انني خائف الى حد يبيح لهم الا يحسبوا حسابا لي . وهذا خطأ منهم ، لانني استطيع بدوري ان أستشيط غضبا وان أشتم ، مثلي مثل غيري ، لكني أنفر من اعطاء تعبير ادبي للمشاعر التي تضطرم في أعماق نفسي وأوثر ان ابقى ملتزما جانب الاستنكاف التام .

لعلي حسنا كنت سأفعل ، من وجهة نظر ما ، لو أطلقت العنان لأهوائي ولأهواء معشر من حولي . وقد سمعنا جميعا بالنظرية التي حاولت ان تفسر التحليل النفسي بالشروط الخاصة المميزة للوسط الفييناوي . وهي في الحق نظرية مثيرة للاهتمام، لم يحجم جانيه عن استخدامها حتى في عام ١٩١٣ ، على الرغم من انه فخور بكل تأكيد بكونه باريسيا وعلى الرغم من ان باريس لا تملك من حق في ان تعتبر نفسها متفوقة على فيينا من وجهة نظر النقاء الخلقي . تزعم هذه النظرية ان التحليل النفسي ، وعلى وجه الخصوص التوكيد الذي ينص على ان الاعصبة مرتبطة باضطرابات في الحياة الجنسية، ما كان ليرى النور الا في مدينة كفيينا ، في جو من الشهوانية والفساد الاخلاقي لا تعرفه مدن اخرى ، وانه يمثل فقط صورة ، بل قل الاسقاط النظري لهذه الظروف الخاصة المميزة للوسط الفييناوي . والحال انني لم اكن في يوم من الايام وطنيا محليا ، لكني استسخفت هذه النظرية من البداية وكدت اسلم اكثر من مرة بأن ذلك المأخذ الموجه الى الوسط الفييناوي ما هو الا تورية غرضها مواراة مأخذ آخر لا يجرؤ اصحابه على الجهر به على الملأ . والحق ان المناقشة غير ممكنة ما لم تتحقق شروط معاكسة . لنفترض انه توجد مدينة يفرض سكانها على انفسهم قيودا خاصة من منظور تلبية الحاجات الجنسية ويظهرون في الوقت نفسه قابلية مفرطة للاصابة بالاعصبة : ففي حال كهذه الحال يمكن ان تراود المراقب فكرة الربط بين هاتين الواقعتين وتفسير واحدتهما بالأخرى . ولكن ليس في فيينا شيء من هذا القبيل . فما الفييناويون بأكثر

تعففا ولا اكثر عصابية من سكان اية مدينة كبيرة اخرى . وكل ما هنالك أن العلاقات بين الجنسين اكثر تحررا فيها بمقدار طفيف مما في مدن الشمال والغرب الفخورة بتزمتها ، كما انها أقل تحرزا من هذه الاخيرة . وخصائص الوسط الفييناوي هذه قمينة بأن تضلل مراقبنا المفترض اكثر منها صالحة لتقديم تفسير إتيولوجي للاعصبة له .

على أن مدينة فيينا فعلت كل ما في مستطاعها لتوحي بأنه لم يكن لها من ضلع في ولادة التحليل النفسي . ففي اي مكان آخر من العالم لم تعامل الاوساط المثقفة والعلمية المحللين بمثل تلك اللامبالاة العدائية السافرة .

لعل تبعة ذلك تقع جزئيا على نفوري من الدعاية . فلو شئت او قبلت ان تعقد حول التحليل النفسي ، في جمعيات فيينا الطبية ، جلسات عاصفة ، يطلق فيها العنان للاهواء كافة وتنهال فيها على الرؤوس المآخذ والشتائم ، فلربما كانت سحبت اليوم الآراء المسبقة المناهضة للتحليل النفسي ، ولربما ما كان هذا الاخير بقي غريبا في المدينة التي رأى فيها النور . لكن شيئا من هذا لم يحدث ، وكما يقول الشاعر على لسان فالنشتاين Wallenstein : «لم يغفر لي الفييناويون كوني قد حرمتهم من مشهد مسرحي» (٢٤) .

ان افهام خصوم التحليل النفسي ، بأقصى ما يمكن من المجاملة ، ما ينطوي عليه موقفهم من جور وعسف ، ما كان بالمهمة

---

٢٤ ـ فالنشتاين : ثلاثية مسرحية كتبها شيلر سنة ١٧٩٨ ـ ١٧٩٩ ، واستوحاها من حياة ألبريخت فالنشتاين ، القائد الذي حارب اثناء حرب الثلاثين عاما تحت امرة امبراطور النمسا ، لكنه طمعا في تاج بوهيميا فاوض العدو ، فجرى اغتياله بأمر من الامبراطور . ـ م ـ

التي استطيع انا اداءها . لكن بلولر هو الذي تكفل بها سنة ١٩١١ في كتابه Die Psychoanalyse Freuds Verteidigung und Kritische Bemerkungen (٢٥) واوفى بها على نحو يستأهل كل تقدير . وكيل الثناء لهذا العمل، الذي يسدد فيه مؤلفه انتقاداته الى كلا الطرفين ، أمر طبيعي جدا من جانبي ، الى حد انني سأسارع الى الجهر بمآخذي عليه . فأنا اجد انه لا يخلو من بعض التحيز، لان مؤلفه يفرط في تسامحه ازاء اخطاء الخصوم وأغلاطهم ، ويغلو في صرامته ازاء نظائرها عند الانصار . وهذا ما يفسر في رأيي ان يكون الحكم الذي صدر عن طبيب نفسي من مستوى بلولر ، عن عالم مثله لا يرقى الشك الى كفاءته واستقلاله الفكري، قد بقي بلا تأثير البتة على زملائه . وانا بكل تأكيد لن اضيف شيئا الى علم مؤلف **الانفعالية** (١٩٠٦) لو قلت له ان التأثير الذي يمارسه عمل ما ليس رهنا بقيمة الحجج التي يشتمل عليها بقدر ما هو منوط بطبيعة لهجته الانفعالية . اما التأثير الذي كان يمكن لبلولر ان يمارسه ، لا على الاطباء النفسيين الخلص ، وانما على انصار التحليل النفسي ، فقد بدده بنفسه في وقت لاحق عندما كشف في كتابه Kritik Der Freudschen theorie (٢٦)(١٩١٣) عن الوجه الآخر لموقفه من التحليل النفسي . ففي هذا المؤلف لم يترك الا أقل القليل قائما من بنيان النظرية التحليلية النفسية، مما أثلج صدور خصوم هذه النظرية الذين اغتبطوا ، ولا بد ، بما أتاهم به من مدد . والحال ان بلولر ، في الادانات التي صدرت عنه ، لم يتذرع بحجج جديدة او بملاحظات جديدة ، بل اعتمد على مستوى معرفته الشخصية بالموضوع ، هذه المعرفة التي ما عاد يفكر اليوم ، خلافا لما فعله في كتاباته السابقة ، بالاعتراف

---

٢٥ ـ **التحليل النفسي الفرويدي ، دفاع وملاحظات نقدية** . ـ م ـ

٢٦ ـ **نقد النظرية الفرويدية** . ـ م ـ

بنقصها وعدم كفايتها . والحق ان التحليل النفسي كان مهددا هذه المرة بأن يمنى بخسارة مؤلمة . لكن بلولر ، في آخر مؤلفاته Die Kritiken Der Schizophrenie) (٢٧) (١٩١٤) ، وهو المؤلف الذي أخذ فيه عليه انه ادخل التحليل النفسي الى كتاب عن الفصام ، يحتمي بما يسميه هو نفسه بـ «الاعتداد» ، فيقول : «لقد قر قراري على ابداء اعتدادي بنفسي : فأنا اقدر ان جميع علوم النفس التي أقترحت علينا الى يومنا هذا لتفسير الروابط التي تربط الاعراض والامراض النفسية المنشأ بعضها ببعض قد اخفقت في مهمتها ، بينما يؤلف علم نفس الاعماق Tiefenpsychologie جزءا من علم النفس الذي ما يزال مطلوبا انشاؤه والذي يحتاج اليه الطبيب ليفهم مرضاه ويعالجهم عقلانيا . بل اني لأعتقد بأنني ، في كتابي عن الفصام ، قد خطوت خطوة (وان لم تحظ بالتقدير بعد) نحو هذا الفهم . والتصريحان الأولان هما بكل تأكيد صحيحان ؛ لكن ليس من المتعذر ان اكون قد ارتكبت خطأ بإدلائي بهذا الاخير» .

وبما أن «علم نفس الاعماق» لا يعني شيئا في واقع الحال سوى التحليل النفسي ، ففي مقدورنا راهنا ان نكتفي بهذا الاقرار .

---

٢٧ ــ انتقادات حول الفصام . ــم ــ

- ٣ -

« عليك بالإيجاز ، فما يوم الدينونة إلا قبض ريح » .

غوته

بعد سنتين من المؤتمر الخاص الاول للمحللين النفسيين ، انعقد المؤتمر الثاني في نورمبرغ هذه المرة (آذار ــ ١٩١٠) . وفي الفترة الفاصلة ما بين هذين المؤتمرين ، وتحت تأثير الاستقبال الذي قوبلت به في اميركا ، وإزاء العداء المتزايد الذي كان يواجه به التحليل النفسي في اقطار اللغة الالمانية والمد اللامتوقع الذي جاءه من زوريخ ، كنت قد صممت مشروعا ، وافلحت ، في اثناء ذلك المؤتمر الثاني ، في وضعه موضع التنفيذ بمساعدة صديقي س. فيرنزي . وكان هذا المشروع يرمي الى تزويد الحركة التحليلية النفسية بتنظيم ، والى نقل مركزها الى زوريخ ، والى إيكال قيادتها الى قائد قادر على تأمين مستقبلها . وبالنظر الى ما اثاره هذا المشروع من اعتراضات كثيرة من قبل أنصاري ،

فسوف أعرض هنا دوافعه بشيء من التفصيل . وأملي ان أفلح في تبرير موقفي ، حتى ولو حكم القارىء بأن فكرتي ما كانت مناسبة .

لقد كان تراءى لي ان الابقاء على مركز التحليل النفسي في فيينا لا يمكن الا ان يعيق الحركة بدلا من ان ييسرها . وكانت مدينة كزوريخ ، تقع في قلب اوروبا وفيها افتتح استاذ جامعي معهدا للتحليل النفسي ، تبدو لي مهيأة اكثر من غيرها لاداء دور مركز الحركة التحليلية النفسية . وقد قلت بيني وبين نفسي ، علاوة على ذلك ، ان ثمة عقبة اخرى تكمن في شخصي بالذات : اذ كانت محاباة الانصار وكراهية الخصوم قد شوهتاه الى درجة بات متعذرا معها تعرفه على حقيقته . ولئن كان بعضهم قد شبهني بكولومبو وداروين وكبلر ، فقد عاملني بعضهم الآخر بكل بساطة على انني مصاب بشلل عام . **ولهذا اردت ان أتنحى جانبا وابتعد** عن الاضواء ، مثلما اردت ان ابتعد بالتحليل النفسي عن المدينة التي راى النور فيها . ثم انني ما عدت أحس بأنني في مقتبل من العمر ، ولما كنت ارى انه ما يزال امامي طريق طويل ، فقد كنت انظر بهمة فاترة وعزيمة مثبطة الى القادم من ايامي التي سيتوجب علي فيها ، وانا ما انا فيه من كهولة ، ان اتولج بدور القائد والمرشد . ومع ذلك فان القائد ضروري ، هذا ما كنت اردده بيني وبين نفسي . كنت أعلم جيد العلم ما الاخطاء التي تترصد اولئك الذين يتعاطون التحليل النفسي ، وكنت آمل ان يتم تحاشي قدر كبير من هذه الاخطاء فيما لو وجدت سلطة مؤهلة لان تنصح وتحذر . وكانت هذه السلطة قد وقعت على عاتقي في بادىء الامر ، لما لي من سبق ادين به لخمسة عشر عاما من التجربة . وقد تطلعت الى نقل هذه السلطة الى رجل اقل تقدما مني في السن ، بحيث يتم تعيينه خلفا لي بصورة طبيعية بعد وفاتي . هذا الرجل ما كان يمكن الا ان يكون ك.غ. يونغ ، لان بلولر كان

في مثل سني ، وكان من مزايا يونغ ، من جهة اخرى ، تعدد مواهبه ، ومساهماته التي سبق له الاسهام بها في التحليل النفسي ، ومركزه المستقل ، ومقدرته الاكيدة التي كانت تفرض نفسها على كل من يقربه . وكان يبدو عليه ، ناهيك عن ذلك ، الاستعداد لعقد اواصر صداقة معي ولغض النظر تجاهي عن الاحكام العرقية المسبقة التي كان من معتنقيها الى ذلك الحين . وما كان لي ان اتوقع ، ازاء كل ما كان يشهد لصالحه ، ان يتضح ان اختياري كان في غير محله لانه وقع على شخص عاجز عن تحمل سلطة شخص آخر واشد عجزا ايضا عن فرض سلطته على الآخرين ، شخص يبدد طاقته كلها في ملاحقة مصالحه الشخصية دونما اي اعتبار آخر .

كنت قد ارتأيت وجوب الاخذ بشكل رابطة رسمية ، تحاشيا للتجاوزات التي يمكن ان ترتكب باسم التحليل النفسي ما ان تتوطد شعبيته . كان من الضروري ان يوجد مركز له سلطة الاعلان عن ان كل تلك السخافات لا تمت بصلة الى التحليل النفسي ، وانها ليست من التحليل النفسي في شيء . أما الجماعات المحلية التي كانت ستتألف منها الرابطة الدولية فرسالتها تعليم طريقة مزاولة التحليل النفسي وتأهيل الاطباء ، بحيث تكون هي الضامنة لكفاءتهم . وكنت ارغب ايضا في ان تقوم بين انصار التحليل النفسي علاقات صداقة وتآزر ، ردا على اللعان الذي كان العلم الرسمي قد استنزله على التحليل النفسي وعلى مقاطعة الاطباء الممارسين للتحليل النفسي والمؤسسات التي يزاولون فيها .

لهذا ، ولا لأي شيء آخر ، كنت ارغب في قيام **الرابطة الدولية للتحليل النفسي** . لكن ذلك كان يتجاوز في أغلب الظن حدود ما هو قابل للتحقيق . وكما وجد خصومي انفسهم مكرهين على الاعتراف باستحالة احتواء هذه الحركة ، كذلك كان لزاما

علي بدوري ان انتهي الى التحقق من استحالة توجيه هذه الحركة في الوجهة التي كنت اريد تعيينها لها . صحيح ان اقتـــــراح فيرنزي جرى الاخذ به في نورمبرغ ، وان يونغ ، بعد ان سمي رئيسا ، اختار ركلن امينا للسر . ثم انه تقرر ، فضلا عن ذلك ، اصدار «صحيفة مراسلة» ، الغرض منها تأمين الاتصـــال بين التجمع المركزي والجماعات المحلية . كما جرى الاعـــلان عن ان هدف **الرابطة** «دراسة وتطوير العلم التحليلي النفسي الـــذي اسسه فرويد ، سواء أمن حيث انه علم نفس ام في تطبيقاته على الطب والعلوم المعنوية» ، و«تشجيع تبادل المساعدة بين اعضائها في جهودهم لحيازة المعارف التحليلية النفسية ونشرها» . غير ان الفييناويين قابلوا المشروع بمعارضة عنيفة. وعبر آدلر ، بعبارات محتدمة ، عن خشيته من ان تقوم على الحرية العلمية رقابـــة تقيدها . ولكن الامر انتهى بـ «الفييناويين» الى تأييد المشروع ، بعد ان استحصلوا على ان يكون مركز الرابطة لا في زوريخ ، بل حيث يكون مكان اقامة الرئيس الذي كان يفترض ان ينتخب لمدة سنتين .

في اثناء المؤتمر بالذات تكونت ثلاث مجموعـــات محلية : مجموعة برلين ، برئاسة ابراهام ، ومجموعة زوريخ التي وضع رئيسها على رأس القيادة المركزية للرابطة ، ومجموعة فيينا التي تخليت عن قيادتها لآدلر . وما امكن لمجموعة رابعة ، هي مجموعة بودابست ، أن تتكون الا لاحقا . كما ما امكن لبلولر حضور المؤتمر نظرا الى مرضه ؛ وقد ثارت بعض اعتراضات مبدئية على دخوله الى الرابطة ، لكن جرى تنسيبه في نهاية المطاف بعد تدخلـــي الشخصي ، الا انه عاد فخرج منها على اثر خلافات نشبت فـــي زوريخ . وبذلك انفصمت الصلة التي كانت تربط مجموعة زوريخ المحلية بمؤسسة بورغولزلي .

كان من النتائج الاخرى لمؤتمر نورمبرغ تأسيس مجلـــة

Zentralblatt Fur Psychoanalyse (١) التي تولى ادارتها آدلر وشتيكل . وكان لهذه المجلة في الظاهر ميل الى المعارضة في بادىء الامر ، وقد دافعت عن هيمنة فيينا التي بدا انتخاب يونغ وكأنه يضعها موضع تهديد . لكن لما جاءني مديرا المجلـــة ـ وقد تعذر عليهما ايجاد ناشر ـ يطمئنانني الى نياتهما السلمية باقرارهما لي سلفا بحق النقض فيما يتعلق بمقالاتهما ، قبلت بأن اتكفل باصدار هذه الدورية التي ظهر عددها الاول في ايلول ١٩١٠ والتي شاركت فيما بعد مشاركة فعالة في تحريرها .

سأتابع الان تاريخ المؤتمرات التحليلية النفسية . فثالثهـا قد انعقد في فايمار في ايلول ١٩١١ ، وتجاوز المؤتمرين الاولين من حيث قوامه واهميته العلمية . وقد اعرب ج. بوتنام ، الذي حضر هذا المؤتمر ، لدى عودته الى اميركا ، عن رضاه واحترامه **للموقف المعنوي** (٢) لمن شاركوا فيه واستشهد بالحكم الذي قال انني اصدرته عليهم : «لقد تعلموا ان يتحملوا الحقيقـــة» (٣) . وبالفعل ، ان جميع اولئك الذين اعتادوا على حضور المؤتمـرات العلمية ما استطاعوا الا ان يخرجوا بانطباع ايجابي عن اجتمـــاع المحللين النفسيين ذاك . ولما كنت انا الذي تولى ادارة المؤتمرين الاولين ، فقد منحت يومئذ كل واحد الزمن المطلوب لالقاء كلمته ،

---

١ ـ **المجلة المركزية للتحليل النفسي** . ـم ـ

٢ ـ بالانكليزية في النص . ـم ـ

3 — On Freud's Psycho - Analytic Method And its Evolution. «Boston Medical And Surgical Journal» , 25 Jan. 1912.

(حول منهج فرويد التحليلي النفسي وتطوره ، في مجلة بوسطن الطبية والجراحية ، ٢٥ كانون الثاني ١٩١٢) .

وتركت المناقشة تتخذ شكل تبادل حميم للافكار . اما يونغ ، الذي تراس مؤتمر فايمار ، فقد ترك المناقشة تحتدم اثر كـــل مداخلة ، الامر الذي لم تترتب عليه محاذير جلي في تلـــك الفترة .

لكن الامور جرت غير هذا المجرى في المؤتمر الرابع الـــذي انعقد في ميونيخ في ايلول ١٩٥٣ والذي ما تزال ذكراه حية في اذهان كل من شارك فيه . وقد تراسه يونغ الذي لم يدلل على قدر كاف من الكياسة واللياقة ؛ فأصحاب الكلمات ما اعطوا الا وقتا محددا ، وبالمقابل فان المناقشات ما كانت ، لطولها ، الا لتعتم على المداخلات الاساسية . وقد شاءت المصادفة، التي كثيرا ما ترتب الامور على نحو لا يخلو من خبث ، ان يختـــار هوش Hoche السيء النية مسكنه في نفس البيت الذي كان المحللون يعقدون فيه اجتماعاتهم . وهكذا امكن له ان يقتنع الى اي حد كان باطلا تعريفه للمحللين النفسيين بأنهم «شيعة متعصبة منصاعة لامر رئيسها» . وبعد مفاوضات شاقة ولا تدعو الى الاغتباط ، اعيد انتخاب يونغ رئيسا **للرابطة الدولية للتحليل النفسي** ، وهو منصب لم يتردد في قبوله بالرغم من ان خمسي المقترعين حجبوا عنه ثقتهم . وهكذا تفرق شمل المجتمعين ، دونما رغبة كبيرة في معاودة اللقاء .

كان تركيب **الرابطة الدولية للتحليل النفسي** ، في زمـــن المؤتمر ، كالتالي : كانت مجموعات فيينا وبرلين وزوريخ المحلية قد تكونت منذ مؤتمر نورمبورغ (١٩١٠) ؛ وفـــي ايار ١٩١١ تأسست مجموعة في ميونيخ برئاسة د. ل. سيف Seif ; وفي مجرى العام نفسه تألفت اول مجموعة محلية اميركية باسم : the New York Psychoanalytic Society (٤)، وبرئاسة بريل.

٤ ـ جمعية نيويورك للتحليل النفسي . ـم ـ

وفي اثناء انعقاد مؤتمر فايمار تمت الموافقة على تأسيس مجموعة اميركية ثانية ، وتشكلت بالفعل في مجرى العام التالي باسم : American Psychoanalytic Association (٥) وضمت اعضاء يقيمون في كندا ومناطق شتى من اميركا ، وتولى رئاستهـــا ج. بوتنام وامانة سرها إ. جونز . وقبيل مؤتمر ميونيخ (١٩١٣) تأسست مجموعة بودابست المحلية برئاسة فيرنزي . وبعيد هذا المؤتمر اسس جونز ـ وقد قدم للاقامة في لندن ـ اول مجموعة انكليزية . وغني عن القول اننا اذا شئنا تكوين فكرة دقيقة عن الاهمية العددية لأتباع التحليل النفسي وانصاره ، فلا بد من ان نأخذ في حسابنا ايضا اولئك الذين ما كانوا ينتسبون ـ وهم كثرة ـ الى اي من تلك المجموعات المحلية الثماني .

يستاهل تطور الادب التحليلي النفسي الدوري هو الآخـــر اشارة مقتضبة . فأول نشرية وضعت في خدمة التحليل النفسي كانعنوانها Schriften zur Angewandten Seelenkunde (٦) . وكانت عبارة عن نشرية تصدر على فترات غير منتظمة ابتداء من عام ١٩٠٧ . وقد ظهرت في هذه السلسلة ابحاث لفرويد (العددان ١ و٧) ، وركلن ، ويونغ ، وابراهام (العددان ٤ و١١) ، ورانـــك (العددان ٥ و١٣) ، وسادجر ، وبفستر ، وم. غراف graf وجونز (العددان ٥ و١٤) ، وستورفر ، وفون هوغ ـ هلموث(٧). وجاء تأسيس مجلة ايماغو imago ، التي سنتحدث عنهـا لاحقا ، ليلحق بعض الاذى بذلك الشكل من اشكال النشـر . وعقب اجتماع سالزبورغ (١٩٠٨) تأسست JahrBuch Fur Psychoa-

٥ ـ الرابطة الاميركية للتحليل النفسي . ـم ـ

٦ ـ **اوراق في علم النفس المختص** . ـم ـ

٧ ـ في السلسلة نفسها ظهرت لاحقا ابحاث لسادجر (العـــدد ١٦ و١٨) وكيلهوز (العدد ١٧) .

nalytische und Psychopathologische Forschungen (٨) . وقد بقي يونغ رئيسا لتحريرها لمدة ٥ سنوات ؛ ثم عاودت صدورها بادارة جديدة وبعنوان معدل بعض الشيء : JahrBuch Der Psychoanalyse (٩) . وبعد ان كانت عبارة عن ملف مفتوح للابحاث التعليمية، صار هدفها تسليط الاضواء على الاهمية والامكانيات التطبيقية لجميع طرائق التحليل النفسي ولجميع منجزاتـــه .

اما مجلـــة Zentralblatt Fur Psychoanalyse ، التي صمم مشروعها آدلر وشتيكل عقب تأسيس **الرابطة الدولية** (نورمبورغ ١٩١٠) ، فما عرفت الا وجودا مقلقلا . فالعدد العاشر من المجلد الاول اعلن ، على الصفحة الاولى ، انه بالنظر الى الخلاف العلمي، الذي نشب بين د. الفريد آدلر والناشر ، اتخـــذ الاول قرارا بالانفصال بمحض ارادته عن التحرير . وهكذا بقي د. شتيكـل المحرر الوحيد لها (صيف ١٩١١) . وفي مؤتمر فايمار ، رفعت الـــ Zentralblatt الى مقام اللسان الرسمي **للرابطة الدولية** ، وتقرر ارسالها الى جميع اعضاء هذه **الرابطة** ، على ان يُرفـــع رسم الاشتراك السنوي . وبدءا من العدد ٣ من السنة الثانيـــة (شتاء ١٩١٢) صار شتيكل المحرر المسؤول الوحيد عن مضمون الابحاث المنشورة في الـ Zentralblatt . ونظرا الى موقفه ، الذي لا يسعني الكلام عنه جهارا ، اضطررت الى التخلي عـــن دوري كناشر والى المبادرة الى تزويد التحليل النفسي على عجل بناطق جديد بلسانه : internationale Zeitschrift Fur Arztliche Psychoanalyse (١٠) . وبفضل جهود جميـــع

٨ ـ المجلة السنوية للبحوث في التحليل النفسي وعلم النفس المرضي. ـم ـ

٩ ـ حولية التحليل النفسي . ـم ـ

١٠ ـ المجلة الدولية للتحليل النفسي الطبي . ـم ـ

المساهمين تقريبا ، وكذلك بفضل جهود الناشر الجديد ، هـ. هيلر Heller ، امكن للعدد الاول من هذه الدورية ان يصدر في كانون الثاني ١٩١٣ ، كما امكن لها ان تفرض نفسها لسانا رسميا **للرابطة الدولية للتحليل النفسي** ، بدلا من الـ Zeitschrift .

في اثناء ذلك ، اسس الدكتور هانس ساكس والدكتـــور اوتو رانك ، في بحر عام ١٩١٢ ، مجلة جديدة ، هي **ايماغو** ، المخصصة فقط لتطبيقات التحليل النفسي على العلوم المعنوية . وقد حظيت ايماغو باهتمام متعاظم ، وتابعها حتى القراء الغرباء عن التحليل الطبي بحصر المعنى (١١) .

بالاضافة الى هذه الدوريات الاربع (**اوراق في علـم النفس المختص ، الحولية ، المجلة الدولية ، ايماغو**) نشرت دوريات المانية واجنبية اخرى ابحاثا تستأهل التصنيف في عداد الادب التحليلي النفسي . فمجلة Journal of Abnormal Psychology (١٢) التي يصدرها مورتون برانس Prince ، تشتمل بصفـــة عامة على أبحاث تحليلية ممتازة تجعل منها الممثل الرئيسي للادب التحليلي الاميركي . وفي شتاء ١٩١٣ انشـــأ وايت White وجيليف Jelliffe ، من نيويورك ، مجلة موقوفة علـــى التحليل النفسي (the Psycho - Analytic Review) (١٣) وهي مجلة كانت تمس اليها الحاجة ، على اعتبار ان معظم الاطبـــاء الاميركيين المهتمين بالتحليل يجهلون اللغة الالمانية او لا يتقنونهـا

١١ ـ أعيد في ١٩١٩ اصدار هاتين المجلتين من قبل **المنشورات التحليلية النفسية الدولية** . وبدءا من المجلد ٦ ألغيت كلمة «الطبي» مـــن عنوان **المجلة الدولية للتحليل النفسي** .

١٢ ـ مجلة علم النفس المرضي (اللاسوي) . ـم ـ

١٣ ـ المجلة التحليلية النفسية . ـم ـ

اتقانا كافيا (١٤) .

★★★

يبقى علي الان ان أتكلم عن ارتدادين حدثا في صفـــوف المحللين النفسيين ، الاول بين تأسيس **الرابطة** (١٩١٠) ومؤتمر فايمار (١٩١١) ، والثاني بعد هذا المؤتمر ، وان لم يأخذ صفة عامة الا في ميونيخ (١٩١٣) . ولقد كان من الممكن تجنب الخيبة التي سبباها لي ، لو كنت اخذت بعين الاعتبار ، اكثر مما فعلت، ما يحدث لدى الافراد الخاضعين للمعالجة التحليلية . فلقد آمنت من البداية بأن اول احتكاك مع الحقائق الشاقة التي يزيح التحليل النقاب عنها من شأنه ان يصد وينفر ويثير رغبة في الهرب ؛ وما ونيت اعلن ان درجة تفهم كل فرد ترتبط ارتباطا وثيقا بمكبوتاته (وبالمقاومات التي تبقي عليها مكبوتة) التي تمنعه من تخطي نقطة معلومة في التحليل . لكن ما لم اتصور قط امكانيته هو أن يعدل الفرد ، بعد ان يكون قد أوغل بتفهمه للتحليل الى عمق معين ، عن كل ما توصل اليه ، بله ان يفقده . ومع ذلك فان تجربة المرضى اليومية قد اظهرت لنا احتمال الخسران الكامل للمعرفة التحليلية، تحت تأثير مقاومة قوية بعض الشيء ، صادرة عن طبقة اعمق . وهكذا نلاحظ اننا بعد ان نكون ، من خلال عمل شاق ، قد جعلنا المريض يتفهم بعض **المعطيات** التحليلية المتفاوتـــة في اهميتها ، وبعد ان نكون قد أفلحنا في تعليمه كيف يتعامل وإياها وكأنها من الاشياء المألوفة التي تخصه وحده ، نلاحظ في احدى المراحل انه

١٤ – في سنة ١٩٢٠ انشأ جونز «المجلة الدولية للتحليـــل النفسي» (International Journal of Psycho - Analysis) وهي دورية مخصصة لاميركا وانكلترا .

يفقد ، تحت تأثير مقاومة جديدة ، كل ما اكتسبه وتعلمه ، ويضع نفسه في حالة دفاعية كما في عز ايام تدربه . وقد سنحت لي الفرصة لأتبين ان المحللين النفسيين يمكن ان يتصرفوا ، من وجهة النظر هذه ، تصرف المرضى الخاضعين للتحليل .

ان سرد تاريخ هذين الارتدادين ليس بالمهمة السهلـــة او المشتهاة ، اذ لا تدفعني الى ذلك ، من جهة اولى ، دوافـــع شخصية قوية بما فيه الكفاية (فأنا ما كنت انتظر عرفانا بالجميل، كما انني لست بالحقود الذي يحفظ الضغينة) ، وأنا أعلم حق العلم ، من الجهة الثانية ، انني أعرض نفسي ، بكتابتي لهـــذا التاريخ ، لتخرصات الخصوم ممن لا يتحرجون ، وأقدم للاعداء المشهد الذي طالما تمنوا رؤيته : مشهد «المحللين النفسيين وهم يفترسون بعضهم بعضا» . ولقد كنت آليت على نفسي (وهـــذه قاعدة حاولت جهدي ان أتقيد بها قدر الامكان) الا أناقش خصومي في غير مسائل التحليل ؛ وهأنذا أجدني مضطرا الى خوض المركة ضد خصوم قدامى او ضد اولئك الذين لا يزال بودهم الى اليوم ان يتظاهروا بأنهم من الانصار . لكن لا خيار لي : فلزومي الصمت سيعني وقوف موقف كسل او جبن وسيلحق بالقضية قدرا من الاذى اكبر من ذاك الذي قد يلحقه بها نكأ الجراح وتعريتها . وأنا، بكل تأكيد ، لن أضيف شيئا الى علم الاشخاص المطلعين اذا مـا قلت لهم ان نظير هذه البلبلة وسوء التفاهم هذا يحدث ايضا في داخل حركات علمية اخرى . وكل ما هنالك ان الحركات الاخرى أقدر على اخفاء الامر ، بينما لا يسع التحليل النفسي ، الـــذي يرفض كل الاكاذيب المتواضع عليها ، الا ان يلزم جانب الصدق حتى في ظروف كهذه الظروف .

ثمة محذور آخر ، أفدح خطورة ، يتمثل في انني لا استطيع ان أمسك نفسي عن اللجوء الى التحليل لتوضيح علة موقـــف المنشقين . والحال ان التحليل لا يصلح للاستخدام كسلاح في

المجادلة وحرب الكلام ؛ فهو يفترض ارتضاء الشخص المـــراد تحليله ، كما يفترض ، بين المحلّل والمحلَّل ، علاقـــة رئيس بمرؤوس . ينجم عن ذلك ان من يتصدى للتحليل بهدف الجدال لا بد له ان يتوقع ارتداد سلاح التحليل الى نحره ، وأن ينحـــو النقاش منحى يغدو من رابع المستحيلات معه على شخص ثالث غير متحيز تكوين اقتناع راسخ . اذن فسأقلص الى ادنى حـــد استعمال التحليل ، وسأحرص في الوقت نفسه على تحاشـــي افشاء الأسرار والموقف الهجومي ازاء خصومي ، وسأحذّر قرائي ـ ناهيك عن ذلك ـ من انني لا اعتبر البتة النهج الذي ازمـــع اللجوء اليه نقدا علميا . فأنا لا أكترث بأن أعرف الجوانب الصائبة التي يمكن ان تنطوي عليها النظريات التي اهاجم واضعيها ، كما لا يدخل في نيتي أن انبري لها بالتفنيد . بل أترك هذه المهمـــة لمحللين نفسيين اكفاء آخرين ، ولقد سبق لهم على كل حال ان أوفوا بشطر منها . وانما كل بغيتي ان ابيّن (وبصدد أي النقاط) ان هذه النظريات تمثل نفي التحليل النفسي ولا تملك الحق في الاختباء وراء هذا الاسم . ولئن لجأت الى التحليل ، فلأبيّن ما الكيفية التي يمكن ان تحدث بها هذه الانحرافات لدى المحللين .

على انني سأجد لزاما علي ، فيما يتعلق بالنقاط التي حولها يدور الخلاف ، اللجوء الى ملاحظات نقدية للدفاع عن الحقـــوق المشروعة للتحليل النفسي . فلقد كان الهدف الاول للتحليـــل النفسي الوصول الى تفسير للاعصبة ، وقد نجحنا ، بعد ان جعلنا نقطة انطلاقنا واقعتي المقاومة والتحويل ، وأخذنـــا بعين الاعتبار واقعة ثالثة تتمثل بالنساية ، نجحنا في بناء نظريـــة الكبت، وفي بيان الدور الذي تلعبه الدوافع الفريزية الجنسيـــة واللاشعور في الاعصبة . والتحليل النفسي لم يزعم في يوم من الايام انه يقدم نظرية كاملة عن الحياة النفسية للانسان بوجه عام، بل كان كل مطلبه ان تستخدم معطياته لتكملة وتصحيح المعطيات

التي تم احرازها بوسائل اخرى . والحال ان نظرية الفريد آدلر تتعدى هذا الهدف من بعيد ، اذ انها تطمح الى ان تقدم ، الى جانب تفسير أعصبة الانسان واذهنته ، تفسير سلوكه وطبعه . بل سأقول انها لا تمتّ بصلة الى نظرية الاعصبة ، وان تعمّدت ، بحكم أصولها ، ان تبوئها على الدوام مكانة الصدارة . لقد سنحت لي الفرصة ، على مدى سنوات عديدة ، لدراسة د. آدلر ، وما تأبيت في يوم من الايام ان اتعرف فيه انسانا موهوبا للغاية ، وان كان فكره ينزع بوجه خاص الى التأمل المجرد . وكيما اعطي فكرة عن «الاضطهادات» المزعومة التي يدعي انه عانى منها من قبلي ، سأعيد الى الاذهان انني عهدت اليه ، عقب تأسيس **الرابطـــة الدولية** ، بقيادة المجموعة الفييناوية . ولم أقرر ان أتولى من جديد رئاسة الجلسات العلمية الا نزولا عند إلحاف جميع اعضاء **الرابطة**. ولما تبين لي انه غير مؤهل كثيرا للتعاطي مع المواد التي يقدمهـــا اللاشعور ولاستعمالها ، تأسيت عن ذلك بقولي بيني وبين نفسي انه حقيق على كل حال باكتشاف العلاقات القائمة بين التحليل النفسي من جهة ، وبين علم النفس والاسس البيولوجية للغرائز من الجهة الثانية ؛ وكان مثل هذا التوقع تبرره الى حد مـــا الدراسات الثمينة التي قام بها عن الدونية العضوية .

وبالفعل ، شرع بدراسة ما من هذا القبيل ، ولكنه فعل ذلك على نحو يوحي (استخدم هنا رطانته بالذات) وكأنه يستهدف في المقام الاول ان يثبت ان التحليل النفسي جانب الصواب بصدد المسائل كافة ، وان تصديقه السذاج للقصص التي يرويهـــا العصابيون هو الذي جعله يعلق مثل تلك الاهمية على الدوافـــع الفريزية الجنسية . وبوسعي ايضا ان افشي سر الدوافـــع الشخصية لموقفه ، على اعتبار انه حرص بنفسه على اطلاع عدد من اعضاء الجماعة الفيناوية عليها : «أتعتقد انه يطيب لي ان احيا طول حياتي خامل الذكر في ظلك ؟» . وأنا لا ارى ما يستوجب اللوم في موقف فتى يقر علنا وجهارا بطموحه الذي كانت كتاباته

قد نمّت عنه . لكن مبلغا ما بلغ طموح المرء ، فلا بد له من ان يحاذر ان يغدو ما يسميه الانكليز Unfair (١٥) (وهي لفظة تصف موقفا يملك له الالمان نعتا اكثر غلظة بكثير) . ومن سوء الحظ ، لم يتمكن آدلر من تحاشي هذا الموقف ، والدليل على ذلك تقدمه لنا الخباثات الصغيرة العديدة التي تربل بها كتاباته وادعاءاته المجاوزة الحد في الاسبقية . الم نسمعه مباشرة ، في جلسات **رابطة فيينا للتحليل النفسي** ، يدعي لنفسه الاسبقية الى القول بتصور «وحدة الاعصبة» وبالتصور «الدينامي» لهذه الاخيرة ؟ ولقد كانت دهشتي عظيمة يومئذ ، اذ كان يخيل الي على الدوام انني انا الذي اكتشف هذين الميدانين ، في وقت ما كنت اعرف فيه آدلر بعد .

ان ظمأ آدلر هذا الى احتلال مكان له تحت الشمس ترتبت عليه بالاصل نتيجة لا يملك التحليل النفسي الا ان يغبط نفسه عليها . فيوم اضحت خلافاتنا العلمية متعذرة التسوية ، دعوت آدلر الى التخلي عن منصبه كمحرر لمجلة Zentralblatt فاستقال كذلك من **الرابطة** واسس جمعية جديدة اطلق عليها في البداية اسما لا ينم عن ذوق رفيع هو : «جمعية التحليل النفسي **الحر**» . والحال ان الناس العاديين ، الغرباء عن التحليل النفسي، يعجزون عن تمييز الفوارق القائمة بين اثنين من **المحللين** عجزنا ، نحن الاوروبيين ، عن تعرف الفروق الدقيقة التي تميز بين سحنتين صينيتين . وهكذا بقي التحليل النفسي «الحر» يقيم في ظل التحليل النفسي «الاورثوذكسي» ، «الرسمي» ، واعتبره الناس استطالة له . ولكن آدلر ما عتم ان خطا خطوة اخرى الى الامام ــ ونحن له عليها من الشاكرين ــ فقطع آخر صلاته بالتحليل النفسي وميّز مذهبه عنه بتسميته «علم النفس الفردي» .

١٥ ــ غير منصف ، سيء النية ، الخ . ــ م ــ

والحق ان في كوكبنا متسعا لكل انسان ، ومن المباح لكل واحد ان يتحرك فيه بحرية اذا ما استشعر في نفسه القدرة على ذلك ؛ لكن من المستحيل الاستمرار في العيش تحت سقف واحد اذا ما انعدم التفاهم وصار الواحد لا يطيق وجود الآخر . و«علم النفس الفردي» الادلري يمثل اليوم واحدا من الاتجاهات السيكولوجية العديدة المعارضة للتحليل النفسي ، ولا يستأهل ان نخص تطوره بعناية ما .

لقد كانت نظرية آدلر من البداية عبارة عن «مذهب» ، وهذا ما سعى التحليل النفسي على الدوام الى تحاشيه . وهي تقدم لنا في الوقت نفسه مثالا ممتازا على «الصياغة الثانوية» التي يجريها الفكر الصاحي على المواد التي تقدمها الاحلام . وفي حالة آدلر تم استبدال مواد الاحلام بالمواد التي تقدمها الدراسات التحليلية النفسية ، منظورا اليها في المقام الاول من وجهة نظر **الانا** ، ومختزلة الى المقولات الملازمة **للانا** ، ومترجمة ومستخدمة وفقا لهذه المقولات ، وتماما كما في تكوين الحلم ، منساءٌ فهمها . وعليه ، فان نظرية آدلر ذاتها تتميز بما تنفيه اكثر منها بما تثبته، وهي تتألف من عناصر ثلاثة ، متفاوتة القيمة : من مساهمات جيدة في علم نفس الانا ، ومن ترجمات لا لزوم لها ، لكن مقبولة عند الاقتضاء ، للوقائع التحليلية الى رطانة جديدة ، ومن تشويهات وتأويلات عسفية لهذه الوقائع كلما انعدم التوافق بينها وبين مقدمات الانا . اما عن عناصر اولى هذه المقولات ، فان التحليل النفسي لم يخطر له ببال قط ان يتجاهلها ، وان لم يتراء له انه ملزم بأن يعيرها انتباها خاصا : بل كان يهمه قبل ذلك ان يبين ان ثمة عناصر ليبيدوية تلازم جميع صبوات الانا . اما نظرية آدلر فتلح ، على العكس ، على العناصر الانانية الملازمة للدوافع الليبيدوية ، وهي وجهة نظر كان يمكن ان تكون خصبة لولا ان آدلر يستخدمها في كل لحظة وآن لينكر الدافع الليبيدوي لصالح

عناصر الانا الحافزة . وهو يسلك ، بعمله هذا ، مسلك مرضانا جميعا ، ومسلك فكرنا الواعي بوجه عام ، اي باللجوء الى ما يسميه جونز بالتعقيل ، بغية اخفاء الحافز اللاشعوري . ومن هذه الزاوية ، فان آدلر منطقي مع نفسه الى حد التصريح بأن نية الوقوف امام المراة موقف السيد ، مجيئها من أعلى ، تشكل النابض الرئيسي للفعل الجنسي . واني لأجهل ان كان جرؤ على التعبير عن هذه الفواحش في كتبه .

لقد اعترف التحليل النفسي مبكرا بأن كل عرض عصابي لا يظهر الى حيز الوجود الا نتيجة لتسوية . ومن ثم لا بد له من ان يلبي بصورة من الصور مطالب الانا الواقع تحت ضغط ميوله المكبوتة ، وأن يكون ذا فائدة ما ، وان يتيح امكانية استخدام ناجع له ، وإلا لكان مصيره مصير الدافع الغريزي البدائي المكبوت . وعبارة «المرض المربح» تعبر كافي التعبير عن هذا الوضع ؛ ومباح لنا ، فضلا عن ذلك ، ان نجري تمييزا بين ربح أولي ينتفع به المريض ساعة ظهور العرض ، وربح «ثانوي» يتأتى من ان العرض مرغم ، اذا كان يريد توكيد ذاته ، على التراكب مع مقاصد اخرى للانا ، وعلى الاعتماد عليها .

اما ان تناقص هذا الربح او زواله ، عقب تغير فعلي ، يشكل احدى الاواليات التي يشفى بها المريض من عرضه ، فهذه ايضا واقعة معلومة لدى التحليل النفسي منذ زمن بعيد . والحال ان نظرية آدلر تشدد تشديدا خاصا على هذه التفاصيل ، السهل تبيئنها ومعاينتها ، من دون ان تنتبه البتة الى ان الانا يجعل ، في العديد من الحالات ، من الضرورة فضيلة ، فيستطيب العرض الذي فرض نفسه عليه — وان يكن في الاصل مستكرها — لما يستتبعه من نفع وفائدة ، تماما كما يفعل عندما يقبل بالحصر كوسيلة امان . ويلعب الانا في هذه الحالات عين الدور الذي يلعبه مهرج السيرك الذي يسعى ، بحركاته ، الى اقناع الحضور

بأن جميع التغيرات التي تحدث على الحلبة هي من فعل ارادته وأوامره . الا انه لا يفلح في ان يقنع احدا من الحضور سوى الاطفال .

اما العنصر الثاني من العناصر المكوّنة للنظرية الآدلرية ، فلا يسع التحليل النفسي الا تبنيه بوصفه شطرا منه . وبالفعل ، لا يعدو الامر ان يكون معطيات تحليلية نفسية استقاها المؤلف ، خلال السنوات العشر من العمل المشترك ، من المصادر المتاحة للجميع ، ويبغي مع ذلك ان يصورها وكأنها من اكتشافه الشخصي ، متوسلا الى ذلك محض تغيير في المصطلحات . وانا على اتم استعداد للاقرار بأن كلمة «ضمانة» افضل من عبارة «وسيلة امان» التي كنت أستخدمها شخصيا ، لكني لا اجد ان هذا الاستبدال للفظة بأخرى يترتب عليه تغير في المدلول . بل اننا سنهتدي ، في توكيدات آدلر ، الى طائفة من الاشياء المعروفة منذ زمن بعيد فيما لو وضعنا محل كلمتي « وهم » و « وهمي » ، والفعل المبني من الجذر نفسه ، كلمات اقدم عهدا في استعمالها ، وذات صلة بمفهوم « التخييل » («الخيال») . ومن حق التحليل النفسي أن يلح على هذا التماثل ، حتى ولو كنا لا نعلم ان المؤلف استقى من معين مواده وساهم في العمل المشترك على مدى سنوات عديدة .

ان النظرية الآدلرية ، من حيث هي «علم نفس فردي» ، لا تنفصل بصورة نهائية عن التحليل النفسي الا بجزئها الثالث ، اي بالتأويلات الجديدة والتحريفات للوقائع التحليلية المحرجة . فالفكرة التي يقوم عليها مذهب آدلر هي ان ميل الفرد الى توكيد ذاته و«نزوعه الى التسلط» هما اللذان يترجمان في شكل «احتجاج رجولي» آسر في المسلك الحياتي وفي الطبع وفي العصاب . والحال ان هذا الاحتجاج ، الذي يعزو اليه آدلر دور المحرك الرئيسي ، ما هو في واقع الامر سوى الميول المكبوتة التي

يفصلها آدلر عن اواليتها السيكولوجية ، عن طريق تجنيسها ، وهذا بالضبط ما يتنافى ودعواه بأنه جرد الجنسية من الدور الذي يقلدها إياه التحليل النفسي في الحياة النفسية . ان الاحتجاج الرجولي له وجوده بكل تأكيد ، لكن حتى يجعل المرء منه محرك الصيرورة النفسية ، فلا بد له ان يعتبر الملاحظة العلمية مجرد مقفز للوثوب الى اعلى . لنأخذ ، على سبيل المثال، احد التعديلات الرئيسية التي تطرأ على الرغبة الطفلية ، نقصد التعديل الذي ينجم عن مراقبة الطفل للعلاقات الجنسية بين الراشدين . فتحليل الاشخاص الذين اضطروا لاحقا الى طلب المعالجة الطبية يكشف النقاب عن ان رغبتين اثنتين استبدتا بالمراقب الفض العود ساعتئذ : الرغبة (اذا كان صبيا) في ان يكون محل الرجل الذي يلعب الدور الفعال ، والرغبة المضادة في التماهي مع المراة التي لا خيار لها الا في دور منفعل . ان هاتين الرغبتين تستنفدان امكانيات اللذة المرتبطة بالموقف . ووحدها الرغبة الاولى قابلة للربط بالموقف الرجولي ، وهذا على افتراض ان هذا التصور له ، بوجه عام ، معنى ما . اما الرغبة الثانية ، التي لا يكترث آدلر بمصيرها او يتجاهله ، فهي المدعوة مع ذلك الى ان تلعب دورا اهم بكثير في العصاب المرشح للظهور مستقبلا . ان آدلر يسجن الانا في انانية شرسة ويقضي عليه بعزلة مستوحشة ، بحيث يخيل اليه انه غير ملزم بأن يأخذ بعين الاعتبار سوى الدوافع الفريزية التي تناسبه والتي عليها يوافق؛ ومن ثم فان العصاب ، الذي تعارض فيه الحفزات الانا ، يتجاوز افق مؤلفنا .

غير ان آدلر لا يبتعد اخطر الابتعاد عن الواقع الذي تشف عنه الملاحظة العلمية ولا يقع في اسوأ ضروب التخليط الذهني كما يحدث له عندما يحاول ، طبقا لاحدى قواعد التحليل النفسي الاساسية ، ان يربط مبدأ نظريته بالذات بحياة الطفل النفسية .

فهو يخلط هنا على نحو بالغ التعقيد ولا مسوغ له على الاطلاق بين المعنى البيولوجي والمعنى الاجتماعي والمعنى السيكولوجي لكلمتي «المذكر» و«المؤنث» . وانه لمن المتعذر التسليم (والملاحظة تعارض ذلك عند الاقتضاء) بأن الطفل ، أذكرا كان أم انثى ، يقيم كل تصوره عن الحياة على اساس الخفض من قيمة المرأة ويتخذ من الرغبة التالية خطا هاديا له : «أريد ان أصبح رجلا بملء معنى الكلمة» . ففي البداية ، لا يكون لدى الطفل اي فكرة عن الفوارق الجنسية ؛ بل يكون راسخ الاقتناع بالاحرى بأن كلا الجنسين يملكان عضوا تناسليا واحدا (مذكرا) ؛ ولا تطال تأملاته الجنسية الاولى بصورة من الصور الفروق الجنسية ، وتكون فكرة دونية المرأة الاجتماعية غريبة عنه كل الغربة . وعديدات هن النساء اللواتي لا تلعب الرغبة في ان يكنّ من الرجال اي دور في عصابهن . اما الاحتجاج الرجولي فهو قابل لان يُرد بسهولة الى الاضطرابات الطارئة على النرجسية البدائية بفعل تهديد الخصاء ، وبعبارة اخرى ، بفعل العقبات الاولى التي تعترض النشاط الجنسي . ولسوف تنتهي جميع المناقشات بصدد اسباب نشوء الاعصبة يوم يتقرر نقلها الى صعيد الاعصبة الطفلية . وحسبنا ان نقوم بتحليل دقيق ومفصل لعصاب من الطفولة الاولى حتى تتبدد على مرأى منا جميع الاخطاء المتعلقة بأسباب نشوء الاعصبة وجميع الشكوك المحومة حول دور الدوافع الفريزية الجنسية . لذا وجد آدلر نفسه مضطرا ، في عرضه النقدي لكتاب يونغ Konflikte Der Kindlichen Seele (١٦) ، الى الاشارة الى ان المواد المتعلقة بهذه الحالة «قد أمكن لها ان تتلقى من الاب» طابعها الشامل (١٧) .

---

١٦ ـ **الصراعات في نفسية الطفل** . ـم ـ

١٧ ـ **المجلة المركزية للتحليل النفسي** ، ١م ، ص ١٢٢ . ـم ـ

لن الح اكثر من ذلك على الجانب البيولوجي من نظرية آدلر ، ولن أسعى الى ان أتحرى هنا ما اذا كان اساس المذهب الآدلري يقوم على الدونية العضوية الموضوعية او على الشعور الذاتي بهذه الدونية (يتعذر ابداء رأي قاطع بصدد هذه المسألة) . لنقل فقط ان العصاب ، في تصور آدلر ، لا يظهر الا كمعلول ثانوي لانحطاط عام ، بينما تعلمنا الملاحظة انه يوجد عدد لا يقع تحت حصر من اناس قبيحين ، شائهين ، مسيخي الخلقة ، هم في ادنى الحضيض من البؤس الفيزيولوجي ، لكنهم لا يخطر لهم ببال مع ذلك ان يردوا على عيوبهم ودونيتهم بأعصبة . وانا أترك جانبا ايضا الحيلة المثيرة للاهتمام التي تتعمد الخلط بين الشعور بالدونية والشعور بالطفالة Infantilisme . وتظهر لنا هذه الحيلة ما طبيعة التناسخ الذي يمر به عامل «الطفالة» ، الذي يلعب دورا بالغ الاهمية في التحليل النفسي ، ليعاود ظهوره في علم النفس الفردي . لكني احرص بالمقابل على بيان ان جميع المكتسبات السيكولوجية للتحليل النفسي تتبخر وتتلاشى لدى آدلر . ففي كتابه **المزاج العصبي** يبدو اللاشعور وكأنه طرفة من طرائف علم النفس ، ومبتوت الصلة بمجمل المذهب . وقد صرح فيما بعد ، انسجاما مع منطقه ، بأنه لا يهتم كثيرا ان كان هذا التمثل او ذاك شعوريا او لاشعوريا . اما فيما يتعلق بالكبت ، فلم يفقه فيه شيئا على الاطلاق قط . نقرأ في تلخيص لكلمة القاها في جمعية فيينا (شباط ١٩١١) : «يبيّن المؤلف ان المريض ، في احدى الحالات ، لم يكبت طاقته الليبيدوية التي كان يسعى باستمرار الى اتقائها ، كما لم ... الخ» (١٨) . وبعيد ذلك حاجج على النحو

١٨ ـ **مجلة التراسل** Korrespondenzblatt العدد ٥ ، زوريخ ، نيسان ١٩١١ .

التالي في مناقشة دارت في فيينا : «لو سألتم من اين يأتي الكبت ، لجاءكم الجواب بأنه معلول للحضارة ؛ ولو سألتم من اين تأتي الحضارة ، لجاءكم الجواب بأنها نتاج للكبت . وكما ترون ، هذه شعبذة لفظية لا تضاهى» . ولو ان آدلر استخدم جزءا فقط من الارابة التي راح يدافع بها عن «مزاجه العصبي» ، لوجد بكل تأكيد السبيل الى الخروج من ذلك الاحراج ، ولكان ادرك ان الحضارة ، من جهة اولى ، ترتكز الى كبوتات الاجيال السالفة ، وانه تقع ، من الجهة الثانية ، على عاتق كل جيل جديد مهمة صون هذه الحضارة والحفاظ عليها بفرضه على نفسه الكبوتات ذاتها . وانا اعرف حالة طفل كان يعتبر نفسه مخدوعا ويرفع عقيرته بالزعيق لانه اذا ما سأل : «من اين يأتي البيض ؟» جاءه الجواب : «من الدجاجات» ، واذا ما سأل من اين تأتي الدجاجات جاءه الجواب : «من البيض» . ومع ذلك ، لم يكن في الامر شيء من الشعبذة اللفظية ، بل كان ما قيل للطفل هو الحقيقة بعينها.

ان كل ما كتبه آدلر عن الحلم ، مفتاح التحليل النفسي ، يبقى هو ايضا بائسا وخاويا . فقد رأى في الحلم ، في بادىء الامر ، استبدالا للخط المؤنث بالخط المذكر ، مما لا يعني في واقع الامر سوى ترجمة ، بتعابير «الاحتجاج الرجولي» ، للنظرية التي عرّفت الحلم بأنه يمثل تحقيقا لرغبات . وفي وقت لاحق وجد ان ما يؤلف جوهر الحلم هو حصول الانسان لاشعوريا في الحلم على ما هو مضنون عليه به في الحالة الشعورية . والى آدلر ايضا تعود الاسبقية في الخلط بين الحلم وأفكار الحلم ، وهو الخلط الذي تقوم عليه نظريته في «النزوع المستقبلي» . ولقد سار ميدر Maeder من بعده في الطريق نفسه . ومن يخلط مثل هذا الخلط يغمض عينيه عن عمد عن واقع ان كل تأويل لحلم من الاحلام (والحلم لا يكون قابلا للفهم بصورة من الصور اذا

لم يؤخذ بعين الاعتبار سوى مضمونه الظاهر) يستند الى عين القواعد والمبادىء التي يماري في قيمتها ونتائجها . اما فيما يتعلق بالمقاومة ، فلا يجد آدلر ما يقوله سوى انها تفيد المريض في معارضة الطبيب . وهذا صحيح ، لكنه من باب قولك : المقاومة تفيد في تأمين المقاومة . لكن من اين تأتي المقاومة وكيف نفسر ان تظاهراتها تأتي على الدوام في محلها وفي الوقت المناسب لتخدم مقاصد المريض ؟ ان المؤلف يدع هذه الاسئلة جانبا ، وكأنها عديمة الاهمية بالنسبة الى الانا . كذلك فانه لا يبدي اهتماما اكبر بالاوليات التفصيلية للظاهرات والاعراض ، وبالعلل التي تكمن وراء تنوع المرض والتظاهرات المرضية : فهذه الاوليات وهذه العلل لا تستأهل من اهتمام في نظره الا بقدر ما تفيد ، كائنة ما كانت طبيعتها ، في توليد الاحتجاج الرجولي وتوكيد الذات وتسامي الشخصية . والحق ان المذهب مكتمل ناجز في اجزائه جميعا ، وقد استأدى واضعه مجهودا ضخما لاعادة تأويل المعطيات والمشاهدات القديمة ، لكنه لا يتضمن اي ملاحظة جديدة. واعتقد انني اوضحت بما فيه الكفاية انه لا يمت بصلة الى التحليل النفسي .

ان فكرة الحياة ، كما تتجلى في مذهب آدلر ، ترتكز بكليتها الى الاعتراف بالدور الراجح ، بله الحصري ، لغرائز العدوان . ولا تفرد اي مكان للحب . وقد تأخذنا الدهشة اذا ما وجدنا تصورا للعالم مثبطا كهذا للعزائم يحظى باستقبال جيد ؛ لكن لا يجوز ان ننسى ان البشرية ، الرازحة تحت نير حاجاتها الجنسية، مستعدة للقبول بأي شيء كان ، بشرط ان يلوح لها باحتمال «هزيمة الجنسية» .

لقد حدث ارتداد آدلر قبل مؤتمر فايمار ، في سنة ١٩١١ . وبعد هذا التاريخ حدث الارتداد السويسري. ولقد كانت مؤشراته الاولى — وهذه واقعة تبعث على الاستغراب — بعض تلميحات

ضمنها ركلن مقالات تبسيطية له نشرت في سويسرا ، وبفضل هذه التلميحات امكن لغير اهل الاختصاص ان يعلموا ، قبل الاختصاصيين ، ان التحليل النفسي أفلح في التخلص من بعض الاخطاء المؤسفة التي ما كانت الا لتسيء الى حظوته . وفي رسالة وجهها الي يونغ من اميركا ، سنة ١٩١٢ ، تباهى يونغ بأنه تغلب، بما ادخله من تعديلات على التحليل النفسي ، على المقاومة التي كان هذا الاخير يلقاها من جانب عدد من الاشخاص الذين كانوا يأبون الى ذلك اليوم ان يعيروه اي اذن صاغية . وقد اجبته بأنني لا ارى في ذلك ما يدعو الى الفخر ، وانه كلما ضحى بالمزيد من الحقائق التي ما احرزها التحليل النفسي الا بشق الانفس ، زاد من مقبوليته لدى الجمهور الواسع . والحال ان التعديل الذي تباهى السويسريون به اعظم التباهي كان يتمثل تحديدا في الانتقاص النظري من قيمة العامل الجنسي واهميته . وانني لأقر واعترف بأنني رأيت من البداية في «هذا التقدم» تنازلا مسرفا وخطرا امام مطالب الساعة الراهنة .

ان الحركتين الارتداديتين ، المنشقتين عن التحليل النفسي، واللتين يتوجب علي الان ان اقابل بينهما ، تتشابهان ايضا من حيث سعيهما الى اكتساب عطف الجمهور بتذرعهما باعتبارات من مستوى اعلى وبتظاهرهما بالنظر الى الامور **من وجهة نظر الابدية** (١٩) . فآدلر يعلن نسبية كل معرفة وحق الشخصية في ان تصوغ فنيا المواد التي يزودها بها العلم . ويلح يونغ على الحق التاريخي للشباب في خلع القيود التي يزعم ان الشيخوخة الطاغية ، المتحجرة في تصوراتها المتصلبة ، تريد ان تغله بها . والحق ان هذه الحجج تستدعي بعض الملاحظات الاعتراضية .

---

١٩ — باللاتينية في النص . —م—

فنسبية المعرفة مطلب يمكن ان يتقابل به اي علم كان ، مثله في ذلك مثل التحليل النفسي . وهو من نتاج بعض التيارات الرجعية في عصرنا ، المعادية للعلم ، واولئك الذين يشهرونه انما يريدون التظاهر بسيماء من التفوق لا تناسبنا نحن . وما من احد منا يملك ان يتكهن بالحكم النهائي الذي ستصدره البشرية على جهودنا النظرية . ونحن نعرف امثلة وقفت فيها ثلاثة اجيال متعاقبة موقفا سلبيا ازاء بعض الحقائق ، فاذا بالجيل الرابع يتنصل من هذا الموقف السلبي بعد طأطأته الراس امام هذه الحقائق عينها . وعليه ، لا يبقى امام كل واحد ، بعد ان يكون قد أعار انتباهه كله ان لصوته النقدي الذاتي وان لصوت خصومه ، الا ان يدافع بكل ما أوتي من قوة عن قناعاته المبنية على التجربة . وحسبنا ان نكون على وئام مع ضميرنا ، وما علينا ان نقوم بدور القاضي الذي يخص الغد البعيد . وليس هناك أخطر من الرغبة في إقحام العسف الشخصي على امور العلم . وانما صدوعا لامر هذا العسف يريد بعضهم ان يماري في القيمة العلمية للتحليل النفسي ، هذه القيمة التي تردها اصلا تأملاتنا السالفة الى حجمها الحقيقي . ومن يقدر الفكر العلمي ويجله يجدر به بالاحرى ان يبحث عن الوسائل والطرائق القمينة بأن تقلص الى اقصى حد مستطاع تأثير العسف الفني والشخصي ، وذلك حيثما ما يزال هذا العامل يلعب بعد دورا أكبر مما ينبغي . ثم اننا لا ننكر انها مضيعة للوقت ان يبدد المرء طاقته في جهود دفاعية . فآدلر نفسه لا يحمل حججه على محمل الجد ؛ بل غرضه منها ان يؤثر في الخصم ، مع احترامه في الوقت نفسه لنظرياته الخاصة . كما انها لم تمنع أنصار آدلر من الاحتفاء به وكأنه المهدي المنتظر الذي طالما بشّر رعال من الرواد الانسانية بقدومه . والحال ان ما من شيء أكثر نسبية من فكرة كهذه .

اما حجة يونغ فترتكز ، **اذا ما حملناها على محمل حسن**(٢٠)، الى مقدمة متفائلة تفترض ان تقدم البشرية والحضارة والعلم قد سلك على الدوام خطا مستقيما متصلا . فكأنه ما وجد قط ورثة صغار ، وكأنه ما قامت قط ثورات أعقبتها ردات ، وكأن التاريخ ما عرف قط اجيالا نكصت ، مدفوعة بحركة ارتدادية ، عن منجزات الاجيال السابقة . ويونغ ، بتقربه من وجهة نظر الجمهور ، وبنكوصه عن بعض المستحدثات التي لم يرحب بها هذا الجمهور ، إما لانها غير محببة الى النفس واما لانها لا تداهن مشاعره ، وبتصحيحه التحليل النفسي بالاتجاه الذي نعرف ، يونغ هذا يولد لدينا الانطباع بأنه اراد ان يفعل شيئا آخر غير تلك البادرة الفتوية والتحريرية . وعلى كل ، واذا شئنا ان نعلم ما اذا كانت هذه البادرة او تلك فتوية ، فلا بد ان ننظر لا الى عدد سنيّ القائم بها ، بل الى صفة الفعل بالذات .

وبين الحركتين اللتين تستأثران باهتمامنا هنا ، فان الحركة التي يقف وراءها آدلر هي بدون ادنى ريب أبلغهما مدلولا ؛ وان تكن خاطئة كل الخطأ فانها تتميز بالمقابل ببنيتها المنطقية وبتلاحمها . وهي تظل ترتكز الى نظرية في الغرائز . اما التعديل الذي أدخله يونغ فقد فصم ، على العكس ، الوشائج القائمة بين الظاهرات والحياة النفسية ؛ وهذا التعديل ، علاوة على ذلك ، شديد الابهام والغموض والتشويش ، كما أوضح نقاده (ابراهام ، فيرنزي ، جونز) ، بحيث لا يسهل تحديد الموقف الذي ينبغي وقوفه منه . ومن اي صوب اتيته ، فلا بد لك ان تتوقع ان يقال لك انك اسأت فهمه ، وان تدري ابدا ما ينبغي عليك فعله وكيف يجب ان تتصرف لتفهمه على وجه صحيح ومطابق . بل ان هذا

٢٠ ـ باللاتينية في النص . ـم ـ

التعديل يتلبس هو نفسه مظاهر شتى ومتنوعة ، فتارة يتبدى وكأنه «خلاف بسيط للغاية لا يستأهل كل الضجة المثارة حوله» (يونغ) ، وطورا كأنه انجيل جديد ، يدشن عصرا جديدا في التحليل النفسي ، بله تصورا للعالم جديدا بالنسبة الى سائر البشرية .

ازاء التناقضات التي نعاينها بين مداخلات شتى ، عامة وخاصة ، ليونغ ، من حقنا ان نتساءل عن مدى الدور الذي يلعبه في هذا كله التخليط السائد في ذهنه بالذات كما في ذهن من يسير في ركابه ، وكذلك عن مدى الدور العائد الى نقص الامانة العلمية . على انه لا خيار لنا الا في ان نسلم بأن انصار المذهب الجديد يواجهون موقفا صعبا . فهم يحاربون اليوم ما كانوا دافعوا عنه بالامس ، وهم يحاربونه ، لا لأن ملاحظات جديدة كشفت لهم عن وقائع جديدة ، وانما بفعل تأويلات جديدة اظهرت لهم الامور في مظهر مغاير لذاك الذي كانت قد تبدت لهم فيه آنفا . ولهذا لا يحرصون على قطع صلاتهم بالتحليل النفسي الذي كانوا من ممثليه الدائمين ، بمعرفة من الجميع ، بل يفضلون ان يعلنوا انهم عدلوا التحليل النفسي . وقد وجدتني مضطرا ، في اثناء مؤتمر ميونيخ ، الى المبادرة الى تبديد سوء التفاهم هذا ، فصرحت انني لا أعتبر البتة التجديدات التي ادخلها السويسريون تتمة منطقية للتحليل النفسي الذي انا واضعه . وكان نقاد غرباء عن التحليل النفسي (فورتمولر على سبيل المثال) قد ادركوا حقيقة هذا الموقف ، كما اصاب أبراهام اذ قال ان يونغ على وشك الانسحاب الكامل من التحليل النفسي . وانا على أتم استعداد بطبيعة الحال للاعتراف لكل انسان بحقه في ان يقول ويكتب ما يشاء ، لكني لا أعترف له بالحق في ان يصور أفكاره بغير ما هي عليه حقيقة .

وكما ان آدلر طالب ، مقابل الجديد الذي ادخله ، بأبحاثه

على التحليل النفسي ــ عناصر لعلم نفس فردي ــ بالحق في نبذ جميع النظريات الاساسية للتحليل النفسي ، كذلك اتخذ يونغ وانصاره من الاضافة الجديدة التي يزعمون انهم زودوا بها التحليل النفسي نقطة انطلاق لهم لكفاحهم ضده . فقد تتبعوا نقطة نقطة (وهذا ما كان بفستر فعله قبلهم) التطور الذي بفضله يتم استخدام مواد التمثلات الجنسية ، ذات الصلة بالعقدة العائلية وبالميول الى حب المحارم ، لتكون بمثابة تعبير عن أسمى اهتمامات الانسان الاخلاقية والدينية : تصعيد الميول الايروسية وتحويلها الى ميول لا تعود تنطبق عليها صفة **الايروسية** . ولقد كان ذلك يتفق اتم الاتفاق مع مقدمات التحليل النفسي ، كما كان من الممكن ان يتفق مع التصور القائل بأن العصاب هو بمثابة انحلال نكوصي لهذا التصعيد ولتصعيدات اخرى كثيرة . لكن الناس كان سيتعالى هتافهم في هذه الحال احتجاجا وكانوا سيستنكرون هذا التبخيس للاخلاق والدين ! ولست بمستطيع هنا ان امسك نفسي عن الاستسلام ، ولو لمرة واحدة ، للتصور «الغائي» ، لأسلم بأن مكتشفي الاكتشاف الذي تحدثت عنه ما كانوا اهلا لمواجهة انفجار تلك الشحنة من الاستنكار . بل من الممكن ان يكون الاستنكار قد بدأ يعتمل في نفوسهم بصمت . والسوابق اللاهوتية للعديد من السويسريين لم تلعب ، في موقفهم من التحليل النفسي ، دورا أقل شأنا من الدور الذي لعبته السوابق الاشتراكية لآدلر في تطور علمه النفسي الفردي . وان المرء ليذهب به الفكر ، غصبا عنه ، الى القصة المشهورة التي يتحدث فيها مارك توين عن مصائر ساعته والى ما تفصح عنه هذه القصة في ختامها من اندهاش : «وقد دأب على التساؤل عما حل بكل المفكرين الخائبين وصانعي البنادق والاسكافيين والحدادين ، لكن ما كان باستطاعة احد ان يجيبه على ذلك» (٢١) .

---

٢١ ــ الشاهد بالانكليزية في النص . ــم ــ

سألجأ هنا الى تشبيه . لنفترض اننا امام محدث نعمة يتباهى بأنه سليل أسرة عريقة في نبلها ، لكنها غريبة عن المجتمع الذي بين ظهرانيه يحيا هو نفسه . ولنفترض اننا اثبتنا له ان أهله يسكنون في الجوار ، وانهم اناس من اصل متواضع للغاية . عندئذ لا يبقى امامه سوى سبيل واحد ، لا يعتم ان يلجأ اليه بلا تردد . فهو لا يستطيع ان ينكر اهله هذه المرة ، لكنه يزعم انهم من النبلاء الساقطين ، ويستحصل من موظف مرتشٍ على وثائق تشهد على نبلهم . وفي رأيي ، ان السويسريين لم يسلكوا غير هذا المسلك . فالاخلاق والدين لا يجوز تجنيسهما ، على اعتبار ان كلا منهما ذو اصل «أعلى» على رسلهم . لكن من المستحيل ، من جهة ثانية ، نفي واقع ان التمثلات ذات الصلة بالاخلاق والدين تنجم عن العقدة العائلية وعن عقدة حب المحارم . فكيف السبيل الى التوفيق بين المطلب المتقدم ذكره وبين هذه الواقعة ؟ بطريقة بسيطة غاية البساطة : بالزعم بأن العقدتين المشار اليهما لا تعنيان من البداية ما يمكن ان نتصور انهما تعنيانه عندما نؤولهما حرفيا، بل تشتملان على معنى **باطني** (بحسب اصطلاح سيلبيرر Silberer) يتيح لهما امكانية التكيف مع الافكار المجردة للاخلاق والروحانية الدينية .

اتوقع ان يعترض علي معترض بأنني اسأت فهم معنى النظرية الزوريخية الجديدة وقصدها ، لكن علي ان آخذ احتياطاتي مقدما، حتى لا يخطر ببال احد ان يعزو الي الاستنتاجات (المتناقضة مع رؤيتي للاشياء) التي ترشح بها منشورات هذه المدرسة . وانا لا استطيع ان اتمثل على غير هذا النحو مجمل تجديدات يونغ ، كما اعجز عن تكوين فكرة متلاحمة عنها . فالتعديلات التي أدخلها يونغ على التحليل النفسي انما أملتها عليه جميعها الرغبة في استبعاد كل ما من شأنه ان يجرح الاحاسيس في العقد العائلية، حتى لا تعاود هذه العناصر الجارحة ظهورها في الدين والاخلاق. وهكذا استبدل الليبيدو الجنسي بفكرة مجردة ، كل ما يمكن ان

يقال عنها هو انها تبقى غامضة وعصية على الفهم ان بالنسبة الى الحكماء ام الى بسطاء النفوس . فعقدة اوديب تلقت مدلولا «رمزيا» ، اذ صارت الأم ترمز الى ما هو غير قابل للتحقيق ، الذي تقضي مصلحة الحضارة بالعزوف عنه ، بينما يغدو الاب ، الذي يسقط في اسطورة اوديب ضحية جريمة ، ممثلا للأب «الداخلي» الذي لا بد للانسان ان يتحرر منه حتى يفوز بالاستقلال والحرية. ولا ريب في ان مواد اخرى من التمثلات الجنسية ستخضع مع مر الزمن لاعادات تأويل مماثلة . وبدلا من النزاع بين الميول الايروسية المعارضة للأنا وميل الانا الى توكيد ذاته ، نشهد بروز ظهور نزاع بين «المهمة الحيوية» و«العطالة النفسية» ؛ وفي هذه الحال لا يعود الشعور بالذنب الملاحظ لدى المصابيين الا بمثابة تأنيب ضميري لاشعوري يوجهه الفرد الى ذاته لعدم وفائه بالمهمة الحيوية . هكذا يكون قد تم تشييد مذهب اخلاقي ـ ديني جديد لم يجد امامه بدا ، مثله مثل المذهب الآدلري ، كيما يوفر لنفسه اسباب التلاحم والصلابة ، من ان يؤول الى معنى جديد المعطيات العينية للتحليل او ان يشوهها ويحرّفها او ان ينحيها جانبا . وفي الواقع ، لم يقع تحت الادراك من كل سنفونية الصيرورة الكونية سوى الجزء الذي تغنّيه الحضارة ، بينما بقيت الآذان صماً دون لحن الغرائز ، رغم قوته البدائية .

وحتى يقيض لهذا المذهب ان يتماسك ، لم يكن هناك مناص من الاشاحة نهائيا عن الملاحظة وعن تقنية التحليل النفسي . وبالمناسبة ، وباسم القضية الكبرى ، استبيحت الاستهانة بالمنطق العلمي ، فاذا يونغ ، الذي لم يجد عقدة اوديب ، على سبيل المثال ، «نوعية» بما فيه الكفاية بالنسبة الى اتيولوجيا الاعصبة ، اذا به يعزو هذه النوعية الى العطالة ، أي الصفة الاعم للاجسام الحية او الهامدة على حد سواء . ويجدر بنا ان نلاحظ، بهذا الخصوص ، ان «عقدة اوديب» لا تعود تمثل ، في راي هذه المدرسة ، سوى معيار يسمح للفرد بتكوين فكرة عن قواه ، ولكن

من دون ان تشكل هي نفسها قوة، شأنها شأن «العطالةالنفسية». وقد دل السبر الفردي وسيدل دوما على ان العقد الجنسية ، بالمعنى الاصلي للكلمة ، تبقى على الدوام حية وفاعلة في الفرد. ولكن اية اهمية لذلك ! فليس أسهل من العزوف عن السبر الفردي ومن السعي الى صياغة استنتاجات بحسب المعطيات التي يوفرها السبر الاتنولوجي . وما دامت العودة الى طفولة الانسان الاولى تنذر بأن تضعنا وجها لوجه امام المدلول الحقيقي ، غير المقنّع ، للعقد التي نسعى الى اعادة تأويلها ، لذا فستتبنى المدرسة الجديدة كقاعدة علاجية عدم التوقف بقدر الامكان عند هذا الماضي ، والتعجيل بالرجوع الى النزاع الراهن الذي يختفي فيه ، حمدا لله ، كل ما هو عرضي وشخصي ، ليحل محله العنصر العام ، الاساسي : عدم انجاز المهمة الحيوية .

ولئن يكن هناك راي يقول ان النزاع الراهن الذي يشكو منه العصابي لا يغدو قابلا للفهم والحل الا متى ما رُبط بالتاريخ السابق للمريض ، على ان تسلك هنا طريق معاكسة لتلك التي سلكها الليبيدو ليفضي الى المرض، فان المذهب العلاجي الزوريخي الجديد ، الواقع تحت هيمنة هذه الميول ، بادر الى سلوك وجهة جديدة يسعني وصفها بناء على معطيات مريض امتحن في شخصه بالذات مفاعيل هذه المعالجة . قال هذا المريض : «هذه المرة لم يقم اي اعتبار للماضي والتحويل . وفي كل مرة كان يخيل الي فيها انني اكاد افهم هذا الاخير ، كان يقول لي انه محض رمز لليبيدو . ولقد كانت النصائح جميلة للغاية ، وكنت أتقيد بها بدقة ، لكن من دون ان اتقدم مع ذلك خطوة واحدة الى الامام. وكان الامر أشد ازعاجا لي منه له ، ولكن ماذا كان بوسعي ان افعل ؟... كانت كل ساعة ، بدل ان تأتيني بتحرر تحليلي ، تفرض علي مطالب عجيبة جديدة ، ولم يكن امامي مفر ، على ما يقال لي ، من الرضوخ لها اذا كنت ابغي التغلب على العصاب :

تركيز داخلي عن طريق الانطواء ، تأمل ديني ، استئناف الحياة المشتركة مع زوجتي ، من خلال الاستسلام لعاطفة الحب ، الخ . وكان ذلك يكاد يتجاوز طاقتي ، اذ ان ما كنت أطالَب به هو تغيير جذري لأناي الصميم . كنت اخرج من الجلسة التحليلية وكأني خاطىء مسكين ، كلي ندم وتوبة ، تعمر قلبي أطيب النيات ، ولكن مثبَّط العزيمة حتى أعماقي . وكان ما يوصيني به لا يختلف عما كان يوصيني به اي قس ؛ لكن من أنى لي ان أستمد القوة لاتباع توصياته ؟» . وقال المريض انه تناهى الى علمه ان من الضروري معاودة كل شيء من جديد عن طريق تحليل الماضي والتحويل . فقيل له انه قد حلّل بما فيه الكفاية من هذين المنظورين . وما دام هذا التحليل لم يثبت نجعه ، فلا مفر لي من الاستنتاج بأنه كان غير كافٍ . ومهما يكن من امر ، فان المعالجة اللاحقة بقيت بلا مفعول ، وانا لا اتردد في الجزم بأنها ما كانت تستأهل بحال من الاحوال تسميتها بأنها «تحليلية نفسية» . واني لأعجب ان يكون الزوريخيون قد تراءى لهم انه من واجبهم ان يلفوا لفة طويلة ليمروا بفيينا قبل ان يعودوا الى برن حيث يعالج ديبوا Dubois الاعصبة بعناية كبيرة بواسطة التشجيع المعنوي (٢٢).

ان التناقض المطلق بين هذا الاتجاه الجديد وبين التحليل النفسي يتجلى ايضا في معالجة الكبت الذي لا يكاد يرد له ذكر في كتابات يونغ ؛ وفي الاستخفاف بالحلم الذي يخلط يونغ ، بعد تنكره (على مثال آدلر) لعلم نفس الحلم ، بينه وبين افكار الحلم

---

٢٢ ـ انا اعلم بالطبع اننا لا نستطيع ان نثق على الدوام بما يرويه المرضى ؛ لكني احرص على الجزم القاطع بأن مخبري شخص جدير بالثقة ، وقادر على ان يفهم ويحكم . وقد قدم لي كل تلك المعلومات من دون ان اطلبها منه ، وانا استخدم هنا ما انبأني به من دون ان استحصل على اذنه ، لانني لا ازعم ان التقنية التحليلية النفسية يمكن ان تطمح الى حماية السر المهني .

الكامنة ؛ وفي انعدام القدرة التام على فهم اللاشعور، وبالاختصار، بصدد جميع مسائل التحليل النفسي الاساسية . وحين نسمع يونغ يجزم ان عقدة حب المحارم ليس لها اكثر من قيمة **رمز** وليس لها اي وجود **فعلي** ، وأن المتوحش لا يشعر بالانجذاب الى والدته العجوز او الى جدته ، بل يفضل امرأة شابة وجميلة ، نجدنا ميالين الى الاقرار ، كيما نفسر التناقض الظاهر بين نظرة يونغ وبين التحليل النفسي ، بأن كلمة «الرمز» وعبارة «اي وجود فعلي» انما تعنيان ما يشار اليه في التحليل النفسي باسم «الوجود اللاواعي» ، آخذين بعين الاعتبار التظاهرات والمفاعيل المرضة التي يعبر بها هذا «الوجود اللاواعي» عن نفسه .

وإذا ما تذكرنا ان الحلم يشتمل ايضا على عناصر اخرى غير الافكار الكامنة التي يمارس عمله عليها ؛ فلن تأخذنا الدهشة البتة اذ نلاحظ ان المرضى يحلمون بأشياء حشيت بها ادمغتهم اثناء المعالجة من اشباه «المهمة الحيوية» و«الوجود في الاعلى» و«الوجود في الاسفل» . ولا جدال في انه يمكن توجيه أحلام الافراد الخاضعين للتحليل ، مثلما يمكن التأثير على الاحلام بتنبيهات اختبارية . وبوسعنا ان نتحكم بحسب رغبتنا بجزء من المواد التي يتألف منها الحلم ؛ لكننا لا نغير شيئا ، بعملنا هذا ، لا في طبيعة الحلم ولا في اواليته . وانا لا اعتقد ان الاحلام المسماة بـ «السيرية» (٢٣) تحدث خارج نطاق التحليل . بل لو حللنا على العكس احلاما حدثت قبل المعالجة ، ولو محصنا ما يضيفه الحالم الى ما أوحي به اليه اثناء المعالجة ، ولو امكننا اخيرا ان نمتنع عن فرض مهام جديدة عليه ، للاحظنا لا محالة ان الحلم ابعد ما يكون عن محاولة تقديم حلول للمهمة الحيوية . فالحلم ما هو الا شكل من اشكال الفكر ؛ ولا سبيل الى فهم هذا الشكل البتة اذا لم

٢٣ ـ او البيوغرافية ، اي المتعلقة بسيرة الحياة . ـم ـ

نأخذ بعين الاعتبار سوى مضمون الافكار ؛ اذ ينبغي ان نأخذ في حسابنا ايضا العمل الذي يتم انجازه في الحلم .

ليس من العسير ان ندحض بواسطة الوقائع تأويل يونغ الخاطىء للتحليل النفسي ومواقفه المعارضة له . فكل تحليل ، اذا ما أجري وفق الاصول ، وعلى الاخص كل تحليل يجرى على طفل ، لا بد ان يعزز القناعات التي عليها يرتكز التحليل النفسي وأن يميط اللثام عن كل تهافت التأويلات الجديدة التي على اساسها شاد كل من آدلر ويونغ مذهبهما . ولقد مارس يونغ بنفسه ونشر ، قبل ارتداده ، تحليلا لطفل . فهل علينا ان ننتظر ان يعطينا عن هذا التحليل تأويلا جديدا مبنيا (بحسب تعبير آدلر) على «تصور تركيبي جديد للوقائع» ؟

ان الراي القائل ان التمثيل الجنسي للافكار «العليا» في الحلم وفي العصاب لا يعدو ان يكون وسيلة تعبيرية قديمة أكل الدهر عليها وشرب يتنافى ، بطبيعة الحال ، مع كون هذه العقد الجنسية تتجلى ، في الاعصبة ، بصفتها حاملة لكميات من الليبيدو جرى سحبها من الحياة الواقعية . ولو كان الامر لا يعدو ان يكون رطانة جنسية ، لما نجم عنه اي تغيير في اقتصاد الليبيدو . ولقد كان يونغ نفسه ما يزال يوافق على ذلك في كتابه Darstellong Der Psychoanalytischen theorie (٢٤)، الذي يصوغ فيه القاعدة العلاجية التي تنص على ان الشحنة الليبيدية يجب ان تسحب من تلك العقد . لكن هذه النتيجة لن نصل اليها ابدا فيما لو أشحنا عن العقد وجعلنا كل توجهنا صوب التصعيد : وانما علينا ان نولي العقد كامل عنايتنا وان نجعلها واعية تماما . وأول واقع ينبغي على المريض ان يأخذه في حسابه هو مرضه بالذات . والطبيب الذي سيركز جهده على صرفه عن هذه المهمة

٢٤ ـ عرض للنظرية التحليلية النفسية . ـم ـ

سيثبت عجزه عن مساعدة المريض على قهر مقاوماته او سيبرهن على تراجعه القهقرى امام النتائج المحتملة لهذا العمل .

ختاما سأقول ان تحليل يونغ النفسي يشبه سكين ليشتنبرغ المشهورة : فبعد ان غيّر المقبض وبدّل النصل ، يريدنا ان نقتنع بأن بحوزته الاداة عينها ، وذلك ما دامت تحمل اسم الاداة القديمة .

اني اعتقد ، على العكس ، انني بيّنت ان المذهب الجديد ينطوي على هجران للتحليل وعلى انفصال عنه . وارتداد كهذا من شانه ان يوحي الى بعضهم بمخاوف على مستقبل التحليل النفسي، على اعتبار ان المعنيين اشخاص لعبوا دورا كبيرا للغاية في حركتنا . لكني انا لا اشاطر المتخوفين تخوفهم هذا .

★ ★ ★

• ان البشر اقوياء ، ما داموا يدافعون عن افكار قوية ؛ ويمسون بحكم العاجزين متى ما ارادوا الوقوف في وجهها . ولسوف يتمكن التحليل النفسي من تحمل هذه الخسارة ، ومن العثور على انصار جدد للتعويض عنها . وسأنهي سطوري بأن أتمنى رحلة ميمونة في الاعالي لاولئك الذين لم يتحملوا ، على المدى الطويل ، الاقامة في عالم التحليل النفسي ما تحت الارض . ورجاؤنا ان يتمكن الآخرون من انهاء عملهم بنجاح في الطبقات العميقة من هذا العالم .

٣٠٠٠ / ٨٢ / ٩٣٠